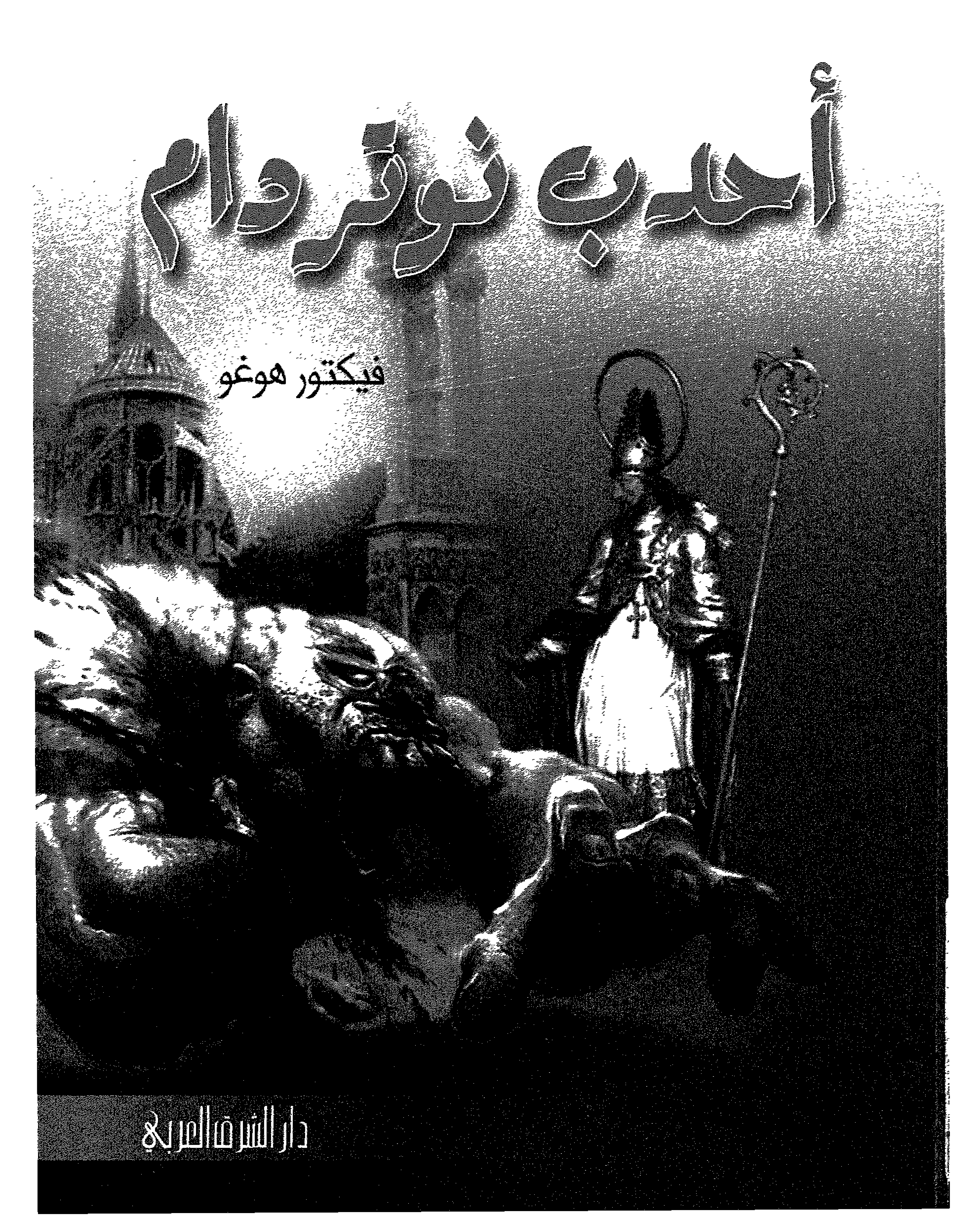
روائع القصص العالمية



أحدب نوتردام

أحدب نوتردام

فيكتور هيجو

ترجمة

الدكتور زكريا مرزا

دار الشرق العربي

بيروت ـ لبنان ـ ص. ب ـ ١١/٦٩١٨

حلب ـ سورية ـ ص. ب ـ ٤١٥

مؤلف الرواية

ولد «فيكتور هوجو» مؤلف هذه الرواية في ٢٦ فبراير سنة ١٨٠٢ بمدينة «بيزانسون» الواقعة بين باريس ومرسيليا، وكان والده حينذاك ضابطاً بالجيش الفرنسي المرابط بتلك المدينة، ثم نقل بعد شهرين الى جزيرة «كورسيكا» ومنها الى جزيرة «البا».

وفي سنة ١٨٠٥، انتقلت الأسرة مع عميدها الى باريس فأقامت بها ثلاث سنوات، ثم صحبته الى «نابولي» فالى «مدريد».. وكان لذلك أثر كبير في تنمية شاعرية فيكتور وقدرته على وصف المناظر الطبيعية والأثرية والمامه بمختلف التقاليد والعادات والمعاملات.

واشترك وهو في الخامسة عشرة من عمره في مسابقة شعرية نظمتها «الأكاديمية الفرنسية» فظفرت قصيدته باعجاب المحكمين، لكنهم ضنوا عليه بالجائزة لصغر سنه، وأسس مع أخيه الكبير صحيفة أدبية اسمها «المحافظ الأدبي» ونشر فيها من القصائد البديعة والفصول الانتقادية ما أكسبه شهرة ومجداً كبيرين، فأمر له لو يس الثامن عشر بجائزة قدرها ٥٠٠ فرنك، ومنحته الجمعية الأدبية في تولوز جائزتها.

وكان قد تعرف منذ عودته من اسبانيا الى صبية جارة له في المسكن اسمها «أديل فوشر» فكانت بينهما الفة تطورت الى زواج.

وأخرج أول ديوان شعر له فلقي رواجاً عظيماً وأعجب به الملك فأمر له براتب سنوي من خزانته الخاصة، وعمل محرراً في مجلة «الموز». وأنعم عليه بوسام رفيع. ثم بدأ ينشر طريقته الحديثة التي ابتكرها في الشعروالأدب، غير عابىء بمعارضة الأدباء والشعراء القدامى أنصار

الأدب الكلاسيكي المحافظين. وكان الملك شارل العاشر قد بدأ سياسة جديدة تقوم على الاستبداد والانتقاص من نابليون ورجاله، فتصدى فيكتور هوجو لانتقاد هذه السياسة والاشادة بمجد الحكومة الامبراطورية، فصار بذلك هدفاً لحملات الحزب الملكي، بجانب حملات الناقمين على طريقته الجديدة. غير أنه مضى في طريقه لا تأخذه في الحق لومة لائم، ونشر في ذلك الحين قصة «كرومو يل» شارحاً في مقدمتها طريقته الأدبية الجديدة، ثم ألف جمعية لها ضمت كثيرين من الأدباء والشعراء. وأخرج ديوانه «الشرقيات» ثم قصة «آخر أيام المحكوم عليه بالاعدام». واتجه الى تأليف المسرحيات فقدم لمسرح «الكوميدي فرانسيز» دراما عنيفة باسم «ماريون» الغانية التي أحبها أحد الرهبان، ولكن الملك لم يوافق على إخراجها. ثم مثلت له مسرحية «ايرناني». فرواية «نوتردام دي باري» فكان لهما دوي عظيم. ثم مثلت مسرحيته الأولى الممنوع عرضها بعد الانقلاب الفرنسي وفرار شارل العاشر سنة ١٨٣٠، كما نشر ديواناً جديداً باسم «أوراق الخريف». ثم أخرجت له المسرحية التاريخية «الملك يلهو» ومنع عرضها بعد ذلك. وألف بعد ذلك تمثيلية «قيصر بورجيا». وقامت بتمثيل دور بطلتها الممثلة الحسناء «جولييت دوروا» فشغف بها حباً وبادلته هي غرامه، الى حد أنها لم تفارقه بعد ذلك. كما أخرج روايات وكتباً وأشعاراً كثيرة في ذلك الحين، منها روايات: «ماري تيودور» و «انجيلا» و «روبلاس» ودواوين: «أغاني الشفق» و «أصوات الأعماق» و «الأشعة والظلال». وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

وعينه الملك لويس فيليب عضواً في مجلس الأعيان، ثم انتخب عضواً في مجلس الأمة، وأسس جريدة «الوقائع». ثم تصدى لمعارضة سياسة نابليون الثالثص فنفي الى بلجيكا. وهناك أخرج ضد نابليون الثالث عدة كتب كان لها دوي شديد في العالم كله، ومنها «نابليون الصغير» و «تاريخ جريمة» و «القصاص». عدا قصائد كثيرة. ثم أخرج

من بلجيكا. واستقر أخيرا في جزيرة «كيرنيزي» التابعة لبريطانيا حيث لحقت به أسرته. وعكف هناك على اخراج مؤلفاته: «التاملات» و «سير الدهور» ورواية «البؤساء» و «شاكسبير»، وغيرها. وبعد هزيمة نابليون الثالث واعلان الجمهورية الثالثة، عاد الى فرنسا وانتخب عضواً بمجلس النواب. وأصدر صحيفة شعبية باسم «الشعب الحاكم». ونشر في سنة ١٨٧٤ قصة باسم «٩٣» عن الثورة الفرنسية الكبرى. كما أنتج كثيراً من القصائد. ثم انتخب عضوا بمجلس الأعيان. واحتفلت باريس ومعها أكثر الدول ببلوغه الثمانين. وبعد ثلاث سنوات وافته المنية وشيعت جنازته باحتفال عظيم

شخصيات الرواية

كلود فرولو : اسقف كنيسة نوتردام دي باري.
جيهان فرولو : شقيقه الصغير، شاب ماجن عربيد.
بيير جرنجوار : شاعر حقير فاشل في الحياة.
أزميرالدا : غجرية حسناء ترقص في الشوارع.
جالي : عنزتها الصغيرة التي تشاركها ألعابها.
كلوبان تريفو : زعيم اللصوص والمتسولين في باريس.
فيبوس دي شاتوبير : ضابط جميل زير نساء.
فلور دي ليس : بنت عمه المخطوبة له.
كازيمودو : أحدب دميم الخلقة جداً، لقيط رباه الأسقف وكلفه بقرع نواقيس الكنيسة.
جاك شارمولي : النائب العام لدى المحكمة الكنسية.
الأخت جيدول : ناسكة مجنونة في صومعة ليس لها باب بأحد أركان ساحة الاعتصاب.

في القاعة الكبرى

في اليوم السادس من شهر يناير ١٤٨٢ استيقظ الباريسيون على دقات النواقيس التي انبعثت من جميع الكنائس، ومن الجامعة، فملأت جو العاصمة الفرنسية بضجة لم يعهدها أهلوها إلا في الأيام المشهودة، من أفراح النصر، أو أيام الأعياد، أو مولد صاحب التاج أو وريث له. بيد أن ذلك اليوم لم يكن يوماً من تلك الأيام التي يكتب لها أن تعيها حافظة التاريخ، فلم يكن دوي النواقيس في ذلك الصباح الشاتي في مدينة باريس، لأمر من الأمور جلل، أو لحدث من الأحداث جدير بالتهليل أو التذكار حفى بالتحية والاكبار.

فما كان ذلك اليوم إلا خاتمة أيام عيد الميلاد من تلك السنة. وقد عقدت النية على إقامة محرقة هائلة في ميدان الاغتصاب، أوسع ميادين باريس، وحول تلك الجذوة الضخمة تتجمع حشود الشعب وأخلاط العامة، فيستشعرون الدفء في برد الليل، وتنحر الذبائح فتشوى على تلك النار العظيمة، مأدبة مبذولة للسوقة، وطرفة يتحف بها الحكام رعينهم الجياع. ولئن أقيمت تلك المأدبة الشعبية الراقصة عند حلول المساء، فهي الختام الرائع ليوم تصرفه الناس في التهليل والتهريج والفرجة.

فلا عجب أن يصحو الناس على دقات تلك النواقيس وقدّ ملأهم الجذل والحبور، فنشطوا خفافاً، واندفعوا أفواجاً الى مواطن اللهو منذ ضحوة النهار.

ولما كان الناس ــ منذ عرفت الأرض حاكماً ومحكوماً، وسيداً ومسوداً، وأمراء وسوقة ــ نزاعين الى التمتع بمظاهر البذخ، واحتلاء مراسم السلطان، فقد كانت قبلة الكثرة الغالبة من أهل باريس حين اعتدل ميزان النهار هي قصر العدل، لأنه كان معلوماً للكافة أن وفد سفراء بلاد الفلاندر ــ الذين وصل ركبهم الى باريس منذ يومين ــ سوف يحضرون حفلا تمثيلياً صاخباً يقام في القاعة الكبرى من ذلك القصر. وفي ختام التمثيل ينتخب الناس «أمير المغفلين»!

وقصر العدل هو أقدم ما عرفته باريس من دور الملوك فيها، فقد كان الملوك لأول عهدهم لا يعرفون بسمة تميزهم أو شارة ترفعهم فوق أقدام الكافة غير سمة العدل وشارة القضاء، يأخذون من القوي للضعيف، وتطمئن القلوب الى عدالتهم وتنزههم عن الهوى. فكان أول ما أقيم لهؤلاء الملوك الأولين من بيوت معروفاً للجميع بشارة الملك وقتئذ وهي العدل المحض، فاذا قيل بيت الملك فقد قيل دار العدل. ثم مضى ذلك العهد، وهجر الملوك مهمة العدل ليستظلوا بمظاهر الأبهة والجاه، فكان طبيعياً أن يهجروا قصر العدل يأتيه الناس فلا يجدون فيه من العدل إلا مكاناً خاوياً على عروشه، فبقي الاسم وذهب المسمى. آية على أن العدل قد بات أسماً على غير مسمى. وكذلك كان قصر العدل بقاعته الكبرى مكاناً تقام فيه الحفلات والمهارج، بعد أن كان هيكلا يساس فيه الملك و يدير فيه الحق و يعز به اليقين.

ولماذا تقام الحفلات الكبرى في ذلك القصر العتيق؟

لأن قاعته الكبرى كانت أرحب قاعة عرفها العالم الأوربي لذلك الزمان، فهي تراث باق من ذلك الزمن الذهبي كان فيه ملوك فرنسا يتصدرون في تلك القاعة ساحة القضاء على رؤوس الأشهاد. و يباح الحضور لكل انسان قياماً بحق الرعية على الراعي، وإقراراً بأن العدل عدل الناس كافة، وأن من ظلم انساناً واحداً فقد ظلم الناس جميعاً وأن القصاص ورفع المظالم أمر يعني الناس كافة. فمن حقهم جميعاً

أن يشهدوه كي تطمئن الى العدل نفوسهم وتنشرح للولاء للملك صدورهم. أما اليوم فقد بات المحراب مهجوراً من العابدين، وتحطم الصنم، فأصبح موضع التقديس ملهى وملعباً. آية على انتكاس الأمور، وانحدار الخلق واضمحلال مقومات الدولة.

□

ولم يكن الوصول الى هذه القاعة الكبرى في ذلك اليوم. والدخول اليها، من هينات الأمور، ذلك لأنها ضاقت بما رحبت بأفواج الناس، وكانت الساحة التي يطل عليها وجه القصر تموج بالناس، فكان الناظر من نوافذ القاعة يقع بصره على مثل البحر الطامي من هامات الخلق. أجل بحر خصم، تصب فيه أفواه خمسة أنهر أو ستة، هي الشوارع الكبرى المؤدية الى تلك الساحة. وكان فيض هذه الأنهار من الرؤوس البشرية غزيراً لا ينقطع له مدد. ولا تنضب له معين.

ولم يكن وجه النسبة بين اليم وذلك الزحام محصوراً في المنظر والكثرة والحركة. بل كان يمتد الى الصوت والضجة. فالهتاف والصياح والضحك كانت كلها تختلط فتصافح الأذن في مثل هدير الموج أو هزيم الرعد.

أما القاعة نفسها فكانت قد غصت بالوافدين اليها منذ بزوغ الشمس حتى لم يبق فيها موضع القدم. والفضل في ذلك لنواقيس باريس التى حفزت الناس منذ بكرة الصباح أن يسبقوا الى تلك القاعة. والسعيد السعيد منهم من ظفر بمكان طيب فيها يشهد منه طلعة السفراء، و يرى التمثيل، وفي القاعة وقاء ليس له نظير من عوارض الجو وبرودة الزمهرير. وفي نوافذ البيوت المحيطة بساحة القصر. وفوق الأسطح والشرفات وقف آلاف من الناس ينظرون باهتمام وهيام الى ذلك القصر. والى الجموع الحاشدة في ساحته. ذلك أن الكثيرين من أهل باريس كان حسبهم للانشراح والاهتمام أن يشاهدوا المشاهدين و يتفرجوا على المتفرجين. ومن لم يهيأ له أن يشهد الحفل الحافل، فله

غناء في شهود الجدار الذي يجري وراءه الحفل، ومن فاته اللحم لم يفته المرق، ولو كان المرق واجهة قصر كل ما تتميز به أن الناظر اليها يعلم و يحس أنها تخفي من وراءها احتفالا وتمثيلا.

وفي وسط القاعة الكبرى، قبالة الباب الأكبر منصة كبيرة غطيت بالديباج المذهب. وكان لها من الخلف مدخل خاص، فهي أشبه بمقصورة ملكية. وقد خصصت هذه المقصورة للسفراء الذين حرصت الدولة على تكريمهم غاية التكريم، وكيف لا. وقد جاءوا الى باريس يحفون بالأميرة «مرجريت» عروساً لصاحب السمو الملكي ولي العهد، و يشارك السفراء في هذه المقصورة كبار المدعو ين لشهود ذلك التمثيل.

وفي نهاية القاعة مائدة ضخمة جداً من الرخام، لها شهرة عريضة، لأنها أكبر مائدة في العالم مصنوعة من قطعة واحدة من الرخام. وفوق هذه المائدة الضخمة ستدور مشاهد التمثيل، فمنذ الصباح الباكر عكف العمال المختصون على تهيئتها كي تبدو مسرحاً مناسباً، بما أضيف اليها من أستار ومناظر. ثم وقف عند أركان المائدة الأربعة أربعة خفراء من رجال عمدة باريس، بمثابة ديدبانات يحرسون مداخل ذلك المسرح المرتجل من تدافع الناس وتزاحمهم. وكأنما كتب لهذه المائدة أن تكون على الدوام موضع حراسة، سواء في أيام السرور أم في أيام الشر والخطر. فهؤلاء الخفراء الأربعة ينبغي أن يكونوا على أركانها في كل مناسبة، عندما تخصص لمحاكمة أو تعذيب أو إعدام، وعندما تخصص ـ كما خصصت اليوم ـ للتمثيل.

وكان المفروض أن يبدأ التمثيل عندما تدق ساعة القصر الكبيرة اثنتي عشرة دقة مؤذنة بحلول الظهر. ولئن كان هذا الوقت يعتبر في نظرنا ساعة مبكرة جداً لابتداء التمثيل، فانه كان يعتبر في ذلك العصر ساعة متأخرة جداً لابتدائه. ولكن لا حيلة في ذلك، لأن الحفلة كان المقصود منها تكريم السفراء، فلا مناص من تحري الوقت الذي يوافقهم و يناسب برنامج زيارتهم الحافلة.

ولما كان الناس قد بكروا الى مواقفهم في القاعة وفوق نوافذها وفوق درج سلمها العريض المكشوف لعوارض الجو. فقد بدأ التذمر يسري بين صفوفهم وهم يستبطئون زحف الزمن، فكان منهم من يحدث جاره شاكياً على غير معرفة سابقة به، وأي معرفة رسمية يحتاج اليها قوم جمع بينهم الفضول ونشدان السرور؟ بل جمع بينهم الموقف الشاذ متعلقين بعوارض الأعمدة العالية أو بالأكتاف التي تزين جدران القاعة الشاهقة الارتفاع. فالموقف نفسية فيه من عناصر الطرافة والفكاهة ما يرفع الكلفة و يغري بالثرثرة والتكاشف، وتسلية الانتظار بالهرج والنكات وعناصر الترفيه دفعاً للملالة عن أنفسهم. فكنت تسمع من يقول أنه جاء عند الفجر، فيجيبه آخر أنه بات ليلته على درجات السلم أمام الباب المغلق حتى يكون أول الداخلين، فلما فتح الباب في الصباح وجد القاغة ملآنة، كأنما سكنتها الشياطين بطريقة غامضة، ثم راح الطلاب، وهم الكثرة الغالبة من الشبان المرحين المحتشدين، يتبادلون النكات والتعليقات اللاذعة على كل من يفد من كبار المدعو ين. وكان أعظم هؤلاء الطلاب مرحاً طالب عربيد نحيف الجسم ذهبي الشعر، كان يرابط فوق احدى النوافذ جاثماً على بطنه اسمه «جيهان». فما إن رأى مدير جامعته يتهادى نحو مكانه من المنصة، حتى صاح بصاحب له:

ــ أولني معروفاً لا أنساه لك أيها الزميل، فاني في وضع لا أملك فيه حرية أعضائي، وقد نذرت لله أن أنتهز أول فرصة لمصافحة أم رأس السيد العميد باحدى فردتي حذائي. فخذ وحياة أبيك الفردة اليسرى، فانها شر الفردتين وقم عني بهذا الواجب!

ولكن قدر للسيد العميد الهمام ألا يظفر بهذه التحية المباركة. إذ دقت في هذه اللحظة ساعة القصر، فحدث هرج ومرج وتعلقت الأنفاس تنتظر الهدية الموعودة، وهي انفراج ستائر المقصورة عن السفراء الأجلاء، يتقدمهم صاحب الدعوة وممثل الدولة صاحب السمو

والنيافة الكاردينال دي بوربون، وانفراج الستائر الأخرى عن المسرح إيذاناً ببداية التمثيل. وكان المفروض أن يتم ذلك كله في وقت واحد هو انتصاف النهار، ولكن شيئاً واحداً هو الذي لم يتخلف عن موعده وقد انتصف النهار، ألا وهو عنين دقات الساعة. أما الكاردينال ومدعووه السفراء، وأما ستارة المسرح، فقد تخلفوا. وتعلقت الأنظار والأنفاس دقيقة وخمساً وعشراً دون أن يفتح الله على الناس بما كانوا ينتظرون منذ الصباح. فسرت غمغمة السخط بين الناس، ثم زاد السخط فأضحى تذمراً، ونما التذمر حتى انقلب تمرداً. وقاد حركة التمرد ذلك الشاب المهذار جيهان، فقد أخذ يصيح وهو منبطح في مكانه فوق النافذة، وعصابة الطلاب من حوله تردد صياحه:

ـ التمثيل! ليبدأ التمثيل فوراً! لن ننتظر الكاردينال!

فردد الناس من ورائه ذلك الهتاف مصفقين:

ـ الى المسرح أيها الممثلون! الى الجحيم يا كاردينال!

وعاد جيهان الى الهتاف:

ـ ليبدأ التمثيل فوراً، أو نحطم المسرح ونذبح الخفراء!

ورددت الجماهير ذلك الوعيد، وقد أبهجها نصور عملية الهجوم على المسرح وتمزيق أشلاء السادة الخفراء، فارتعدت فرائص هؤلاء السادة الأربعة، وراحوا يجيلون الطرف في الناس على وجل، ثم يتخالسون النظر فيما بينهم وقد وجفت قلبوبهم، ولا سيما حين رأوا الناس يتحركون صوبهم، فتراجعوا يلتمسون النجاة لأنفسهم.

وعندئذ تقدم لانقاذ الموقف رجل برز من وراء سنارة المسرح. فكان لظهوره المباغت وقع حاسم لدى الناس، لأنهم أدركوا أنه رسول يحمل اليهم خبراً عن موضوع تشوقهم وتذمرهم، ألا وهو التمثيل، فسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير، ولكن ذلك لم يهدىء من روع الرجل الذي كان يتلعثم وهو يخاطبهم قائلا:

ـ لقد قيض لنا اليوم أن ننال شرفاً عظيماً جداً هو القيام بالتمثيل بين يدي صاحب السمو والنيافة مولانا الكاردينال دي بوربون. ومن دواعي الفخر أن أقوم أنا شخصياً بدور جوبيتير في هذه الرواية الأخلاقية التي عنوانها «الاختيار الحكيم»، وسيرتفع الستار في اللحظة التي يصل فيها صاحب السمو والنيافة راعي الحفلة.

وكان جوبيتير يخاطب الجماهير في ثياب التمثيل التي تناسب دور رب الأرباب، من خوذة كبيرة لامعة، ودرع مذهبة، وثياب سوداء اللون مطرزة بالقصب. وكان طبيعياً أن يتسلى الناس بمنظره و يذهب عنهم شيء من ثورة غضبهم، بيد أن خاتمة خطبته بددت هذا الأثر الجميل الملطف، فأخذ الناس يتصايحون من جديد بقيادة الطالب جيهان:

ـ بل الآن.. الآن!

ـ فليسقط جوبيتير، وليسقط الكاردينال دي بوربون!

ـ التمثيل حالا! حبل المشنقة ينتظر الجميع، من الممثلين الى الكاردينال، إن لم يبدأ التمثيل فوراً!

فاكفهر لون رب الأرباب، وشعر أن ركبتيه تخذلانه، وأنشأ يغمغم كلمات متناثرة لا مفهوم لها من قبيل:

ـ صاحب النيافة.. السفراء.. الأميرة مرجريت..

والحق أن الرجل كان زائغ العينين بين مشنقتين لا مشنقة واحدة، فهو يخشى إذا خالف الجمهور أن يشنقه في التو واللحظة، و يخشى كذلك إذا أذعن له أن يشنقه صاحب النيافة!

وقيضت له السماء من أنقذه في هذه اللحظة، فقد برز من خلف عمود من أعمدة القاعة قريب من المسرح شاب كان حتى تلك اللحظة يلتزم الصمت ولا يشارك في التهريج والتمرد، فتقدم وصاح ينادي جوبيتير، ولكن صوته ضاع بين أصوات الهاتفين بسقوط جوبيتير فلم

يستلفت نظر الممثل، وعندئذ ناداه الشاب باسمه الحقيقي، لا بالدور الذي يمثله:

ـ يا ميشيل جيبورن!

فرفع رب الأرباب المكروب رأسه كمن أفاق من حلم مروع وصاح:

ـ من الذي يناديني؟ الى ها هنا صديق؟

ـ إنه أنا..

فلما نظر اليه الممثل سرى عنه، وابتدره الآخر قائلا:

ـ أبدأ التمثيل فوراً كي تهدأ ثائرة الناس، وسأتولى أنا مشقة تهدئة روع السيد العمدة، الذي سيقوم من جهته بتطييب خاطر السيد الكاردينال.

فاسترد جوبيتير أنفاسه اللاهثة، ورفع يده يدعو الناس الى الصمت ثم قال:

ـ أيها السادة، يا أهل باريس، سنبدأ التمثيل فوراً.

فدوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم أخذ الطلاب الماجنون يصيحون بقيادة جيهان:

ـ مبارك الآتي باسم الرب! مبارك جوبيتير!

وكانت هذه التحية جزءاً من أنشودة كنائسية مشهورة يمجدون بها السيد المسيح، فكان ذلك النشيد علامة صارخة على النذل والمجون بين طلاب باريس، في عهد كانت للتقاليد الدينية سطوتها العاتية.

□

واستمر الهتاف لجوبيتير بعد أن اختفى وراء أستار المسرح، أما الشاب الذي تدخل لانقاذ رقبته، فقد كمن كما برز خلسة وراء العمود، وقبع مكانه لا يحرك ساكناً، إلا أن فتاتين كانتا بالقرب منه لفت

نظرهما ما كلن لمسلكه من تأثير سحري، فتمسحت به إحداهما، فلما سألها متلطفاً:

ـ أتكلمينني يا آنسة؟

ـ لسن أنا التي نادتك، وإنما هي صاحبيت هذه جيزيل.

فانبرت الأخرى تقول وقد تضرج وجهها:

ـ بل إن «لينا» هي التي تريد أن تكلمك.

ثم غضت الحسناوان عينيهما في حياء وخفر. ووجد الشاب في نفسه ميلا الى التقام الطعم الذي قصدت به الفتاتان أن تجراه الى التعرف بهما والتحدث اليهما. فابتسم قائلا:

ـ أستنتج من هذا أنه ليس لدى أي واحدة منكما ما تقوله لي:

فقالت جيزيل:
ـ لا شيء طبعاً على الاطلاق.

وقالت لينا:
ـ أبداً، لا شيء.

فأوشك الشاب أن يتراجع مطو ياً على نفسه كسابق عهده، لولا أن لينا وصاحبتها عقدتا العزم على ألا تدعاه يبتعد عنهما، فقالت لينا متشجعة:

ـ أراك يا سيدي تعرف ذلك الجندي الذي سيؤدي في هذه الرواية دور سيدتنا العذراء المباركة مريم؟
ـ لا شك إنك تعنين دور جو بيتير؟
ـ واخيبتاه! طبعاً هذا ما أعنيه.
ـ نعم، إني أعرف ميشيل جيبورن.
ـ إن له لحية رهيبة.

وعندئذ فتحت الأخرى فمها وقالت على استحياء:
ــ وهل سيكون تمثيلهم شائقاً؟
ــ إنها مسرحية جديدة، تمثل اليوم لأول مرة.
ــ وهل ستكون فيها أغان غرامية؟
ــ هذه يا آنسة رواية أخلاقية، ألفت خصيصاً لهذه المناسبة الجليلة، مناسبة زواج سمو ولي العهد من سمو الأميرة مرجريت فالأغاني الغرامية لا تتفق وموضوع هذه الرواية.

فتأوهت جيزيل وقالت:
ــ يا للخسارة!..

فقال الشاب متلهفاً:
ــ ولكن ثقا أن هذه الرواية ستكون أروع من أي رواية أخرى شهدتماها من قبل في هذه القاعة.
ــ أواثق أنت مما تقول؟
ــ أيما ثقة! يكفي أن تعلما أنها من تأليفي.

فصاحت الفتاتان في صوت واحد:
ــ أحقاً؟.. هل أنت مؤلفها أن نراك تمزح؟
ــ بل إني لا أقول إلا حقاً فقد اشتركت مع زميلي جيهان في إعداد كل شيء. فقام هو بنشر الألواح الخشبية وإعداد المناظر وأعمال النجارة كلها اللازمة للمسرح، وقمت أنا بكتابة الرواية، واسمي أيتها الآنستان «بيير جرنجوار».

وكان قد نفخ في صدره وهو ينطق باسمه بكل زهو، وكأنه يقول «اسمي بيير كورني».

ولا شك أن القراء قد لاحظوا أن ذلك الحوار القصير بين المؤلف الفاضل والحسناو ين قد استغرق دقائق منذ أعلن جو بيتير أن التمثيل سيبدأ في الحال. وقد انقضت هذه الدقائق ولما يبدأ التمثيل، ولكن

الوعد الذي بذل للجمهور كان كافياً لتهدئة ثائرته، كما هو شأن الجماهير في كل زمان. ولكن جيهان كان بالمرصاد، فراح يصيح بأعلى صوته:

– جو بيتير! جو بيتير! أين أنت يا جو بيتير؟ هل تعبث بنا يا حليف الشيطان؟ التمثيل حالا وإلا فالو يل لكم!

وكان ذلك الانذار كافياً لبث الرعب في قلب رب الأرباب من وراء الستار، فتوالت الدقات فوق المسرح تنبيهاً للفرقة الموسيقية الجاثمة تحت المائدة التي اتخذت مسرحاً، فأخذت أنغامها ترتفع، ثم ارتفعت الستارة عن أربع شخصيات تقوم بفصل تمهيدي، والواقع أن الجمهور عني بملابس المثلين أكثر مما عنى بأي شيء آخر، فراح يصفق، وأخذ المثلون ينحنون تحية للناس فيزداد التصفيق، وكان في القاعة شخص واحد على أحر من الجمر، يستعجل الصمت الذي يتيح للممثلين أن يبدأوا. وكان هذا الشخص هو جرنجوار.

فلما سكتت العاصفة التي أثارتها الأكف، راحت الشخصيات الأربع، بملابسها العجيبة، وقد نقش على ذيل ثوب كل منها اسم شخصيته، تتراشق بأبيات الشعر الجزل، فتحول جرنجوار عندئذ الى تمثال ممطوط العنق مرهف الأذنين، فلو كان واقفاً على المسرح لكتبوا فوق ذيله «الاصغاء».

ولم يلبث إلا قليلا حتى انتشى بتلك النشوة الفذة التي يشعر بها المؤلف وهو يسمع مخلوقاته الصغيرة، تلك الكلمات والعبارات، وقد بعثت حية على أفواه المثلين وفي أسماع المشاهدين. وكانت هذه النشوة حرية أن تطول حتى تبلغ الرواية ختام فصلها الأول، لولا أن حدث حادث قطع عليه تلك النشوة، وذلك أن سائلا زري الثياب كان قد تحتل منذ الصباح الباكر موضعاً قريباً من مقصورة السفراء، ولكنه لم يجد في المجموعة المحيطة به من يتصدق عليه، كما أن أصابعه لم تجد في جيوبهم ما يعوضه عن وقته الضائع في الانتظار ومشاهدة

التمثيل، فأراد أن يستلفت أنظار من في القاعة، مستغلا ذلك الصمت الذي سادها، فقفز قفزة بارعة حتى احتل مكاناً فوق حاجز المقصورة الملكية. وكأنه أشفق أن يعكر على الناس صفو الاستماع، فلم ينبس ببنت شفة. وإنما اكتفى بالتلويح بأسماله المهلهلة وبالجرح الغائر البشع الذي كان يشوه ذراعه الأيمن.

وكان جيهان الماجن أول من فطن الى وجوده هناك. فلم يستطع مغالبة الضحك الذي كان يهتز به كيانه. وانفجر صائحاً في ذلك الصمت التام:

ـ أنظروا الى هذا العفريت الصعلوك، يجعل من مقصورة الملوك منبراً للتسول.

أرأيت صفحة البحيرة الساكنة وقد ألقى فيها فتى عابث بحجز؟ إن الضفادع التي تفيض بها تلك البحيرة تخرج عندئذ من مكانها وتشق الفضاء بأصواتها المنكرة ونقيقها الصاخب. كذلك فعلت صيحة جيهان في صمت تلك القاعة، فارتفع نعيق النظارة من كل مكان، واتجهت الأنظار والأصابع نحو ذلك المتسول العربيد.

وهل شهدت الصاعقة تنقض، أو رأيت مس الكهرباء يصيب انساناً فيصعقه لتوه؟.. ذلك حال صاحبنا جرنجوار، حين قطعت عليه نشوته تلك الصيحة الرعناء، فريع ارتياعاً شديداً.

أما المتسول الفاضل فانه انتهز هذه الفرصة المواتية، فأخذ يصرخ وهو يلوح بذراعه المشوه وملابسه القذرة:

ـ احسان لله يا محسنين!

وعندئذ صاح جيهان مرة أخرى:

ـ عجباً! وحياة رأسي ما هذا إلا «كلوبان ترويفو» مرحى أيها الصديق! لا بد أن هذا الجرح العتيد قد ضاق بالمقام فوق فخذك الأيسر

فانتقل الى ذراعك الأيمن! مبروك أيها الصديق! وخذ هذا نقوطاً لمهارتك في قفز الأسوار ونقل الجروح!

ثم قذف اليه بقطعة فضية تلقفها المتسول في براعة النسانيس، ثم بسط يده مرة أخرى صائحاً بصوته المنكر:

ــ إحسان لله يا محسنين!

وعندئذ كان جرنجوار قد أفاق من الصدمة الأولى فأخذ يصيح بالمثلين المسمرين فوق خشبة المسرح أن يستمروا في التمثيل. وهنا أحس بمن يجذبه من مؤخرة سترته. فالتفت في شيء غير يسير من حدة الغضب، ولكنه لم يلبث أن ابتسم حينما اكتشف أن الذراع الذي كان متعلقاً بمؤخر سترته كان ذراعاً بضاً لطيفاً، هو ذراع جيزيل، التي سألته:

ــ هل سيستأنفون التمثيل يا سيدي؟

فأجابها وقد أزعجه سؤالها:

ــ بطبيعة الحال، وهل في هذا شك؟

ــ إذن التمس منك أن تتكرم فتفسر لي الرواية.

ــ الرواية لا تحتاج لتفسيرها إلا أن تنصتي للممثلين.

ــ عفوك يا سيدي. لست أريد منك أن تفسر لي ما سيقولون، بل ذلك الذي قالوه فعلا، فاني لم أفهم منه شيئاً.

فسقط زهو جرنجوار من حالق، وقال في نفسه:

ــ لعن الله هذه الرقيعة البلهاء!

وابتداء من هذه اللحظة سقطت جيزيل من نظره، أما الممثلون فكانوا قد بدأوا يعملون بمشورته، فرفعوا عقيرتهم بأبيات الشعر الرنانة، وبدأ الناس يتحولون عن السائل البهلوان الى خشبة المسرح وما يدور فوقها، فسرعان ما ساد الصمت، وعادت الى جرنجوار سكينة

نفسه، وإن كان قد قرر أن ذلك الفصل بين شطري المنظر بهذه الهمجية قد أطاح بالكثير من الجمال الشعري وروعة الأداء الفني.

ولكن لم يكتب لتلك السعادة التي استردها جرنجوار أن تطول كثيراً، فانه ما كاد الصمت التام يسود القاعة، وقد احتدمت فوق المسرح معركة بيانية على أعنفها بين الشخصية التي تمثل التجارة وتلك التي تمثل النبالة، حتى فتح باب المقصورة الملكية على مصراعيه، وجلجل في الفضاء صوت الحاجب صائحاً:

– حضرة صاحب النيافة المولى الجليل الكاردينال دي بور بون!

الكردينال العظيم

يا لحظ جرنجوار المسكين! ما كانت طلقات عشرات المدافع في يوم القديس يوحنا، ولا طلقاتها في قلعة البرج يوم حصار باريس، تلك الطلقات التي أودت كل طلقة منها بحياة سبعة من المقاتلين البرغنديين الأشداء، لتقع على مسمعه وقع تلك الكلمات التي خرجت داو ية رنانة من فم الحاجب!

وما كان ذلك الخوف أحسه ببير جرنجوار من الكردينال دي بور بون، أو عن كراهية له، فما كان شاعرنا من الضعف بحيث يخافه، ولا من الجسارة بحيث يكرهه. وإنما هو رجل عياش، كان كل أمله أن يظفر بالتفات رجل عالي المكانة مثل الكردينال دي بور بون الى آيات البيان التي نظمها في مديح ولي العهد وخطيبته النبيلة. وكان من الثقة بنفسه و بفنه بحيث كان راسخ الاعتقاد أن اصغاء الكاردينال لروايته سيكون كافياً لتقديره إياه فيرتفع شأنه بعد خمول، و يدخل حياة الجاه من أوسع أبوابها.

فلئن اضطرب جرنجوار وسب الكاردينال فما كان ذلك كراهية منه لحضوره، فهو كما رأينا كان يعلق أكبر الآمال على ذلك الحضور، بل لأنه كان يريد أن يحضرمنذ البداية، فان حضوره في هذه اللحظة سيحول أنظار الناس عن التمثيل الى شخصه الوجيه، ثم يشغل بالتحية، و بذلك يدخل الخلل على النسق الفني مرة أخرى، كما طرأ في المرة الأولى على يد ذلك الشحاذ الألعبان.

وصدق نظر جرنجوار، فتحققت مخاوفه جميعاً: فقد أحدث ذلك الدخول المفاجىء هرجاً ومرجاً بين النظارة، فتحولت جميع الأبصار عن المسرح الى المقصورة وتعلقت بصاحب النيافة، وسرت على كل لسان غمغمة الناس:

ــ الكاردينال، الكاردينال!

فاضطر الممثلون الى الصمت مرة أخرى، ووقف الكاردينال على عتبة المقصورة وأجال في الحاضرين من العامة نظرة سريعة تفيض بعدم الاكتراث، فزادت الضجة، لأن كل واحد من الحاضرين كان يريد أن يرى الكاردينال رؤية واضحة، فكل كان يتطاول بعنقه فوق كتف جاره، أو يصيح به أن يخفض رأسه.

ولهم في هذا عذر، فقد كان الكاردينال دي بوربون من أوجه الشخصيات في باريس، وكانت مشاهدته أمتع وأوقع لدى العامة من أي فرجة أخرى. فقد كان شارل كاردينال دي بوربون ومطران وكونت مدينة ليون، ومن أمراء الكنيسة الغال، يستمد أصله النبيل من عرقين، و يرتبط بوشائج النسب والقرابة الى أكرم أرومتين في فرنسا. فأخوه بيير أمير بوجو صهر الملك لو يس الحادي عشر. وقد تزوج بنت الملك الكبرى. أما أمه آنييس البرغندية فهي من بيت دوق برغانديا العظيم، المعروف باسم شارل الجسور، والذي كان يعتبر نداً لملك فرنسا نفسه، وطالما قرع بسيفه سيفه وطاوله الى عرش الغال.

وكان في ذلك النسب العريق ما يفتن العامة ولا مراء. فهو قد جمع الحسنيين بذلك النسب فضمن مؤازرة الحزبين، وأكل على المائدتين، فوصل بفضل ذلك السند المزدوج الى منصب من أرفع مناصب الكنيسة و بات يرنو بنظره الى عرش بطرس الرسول في روما يوماً ما، وجمع ثروة طائلة مكنته من حياة مترفة باذخة، وطالما افتتن العامة بمظاهر الترف والبذخ ولا سيما حين يجتمعان لرجل في شرخ الشباب فيه جمال ووسامة وترفع.

وكانت هناك مزية أخرياً حببت الكاردينال دي بوربون الى أهل باريس، فهو محب للحياة، مقبل عليها في مرح واستمتاع، فهو يحب النبيذ الذي يأتيه صرفاً من معاصر الكروم الملكية، ولكنه لا يكره أيضاً أنبذة العامة من أهل باريس، فكل ما هو مسكر من عصير بنت الحان مقبول. أما لعب الورق فهو فيه من فرسان الميدان. وأما البر والسخاء فقد اشتهر بهما الكاردينال الشاب، وكل ما هناك أنه يتجه ببره وسخاوته اتجاهاً خاصاً، فهو يؤثر بهما الشابات دون العجائز، والحسناوات دون القبيحات، كي يكون البر أجدى وأنفع.. ولأنه ينبغي على العبد الصالح أن يكرم من أكرمهن الله حين قسم الحظوظ والمنن!

وما من شك أن مكانة الكاردينال من قلوب الباريسيين، هي التي عصمته من سوء الاستقبال الذي كانت تنذر به غضبة الناس منذ مدة وجيزة، حين طال بهم انتظاره كي يبدأ التمثيل. مما يدل على أن شعب باريس هوائي النزعة يهتف اليوم لمن كان ينادي بسقوطه بالأمس، وربما طالب برأسه غداً. يضاف الى ذلك أن شعب باريس شعب ذواقة لا يهون عليه أن يحاسب كاردينالا على تأخره عن الموعد، إذا كان ذلك الكاردينال شاباً جميلا أنيقاً يروق الناظرين شكله وهو في مسوحه الأرجوانية.

دخل الكاردينال إذن، فحيا الناس بتلك الابتسامة الموروثة التي يدخرها الكبراء على طرف الشفاه لجماهير الناس، ثم تقدم فجلس في صدر المقصورة على مقعد كبير مكسو بالمخمل الأرجواني، وأحاطت بمقعده بطانته من كبار رجال الدين.

وكان ظهور هذه البطانة موجباً جديداً للاضطراب والهمهمة بين الناس، فأخذ الطرب يشيرون اليهم واحداً واحداً و يسلقونهم بألسنتهم. وكان أمامهم في ذلك الطالب الماجن جيهان، الذي كان يكره كبار رجال الكنيسة، مع أن شقيقه الكبير أسقف مرموق المكانة.

فمهما يكن من شيء فان الكاردينال كان يبدو وكأنه نصف اله، فهو شارد النظرات منذ دخوله كأنه لا يحس لهذه الآلاف المؤلفة وجوداً حقيقياً، وأكبر الظن أن ضجتهم هذه وضحكاتهم ما كانت تزيد لديه على أن تكون طنيناً كطنين أجنحة الذباب.

ولم يكن شرود الكاردينال عن ترفع ارستقراطي فحسب، بل كان هناك سبب خاص مباشر لذلك الهم أو الضجر، ولا يذهبن بك الظن الى أن هذا السبب كان أمراً من أمور الدولة الكبرى، أو حادثاً جللا من الأحداث التي تهتز لها أركان الكنيسة المقدسة. كلا، فما كان شيء من ذلك كله ليشغل بال الكاردينال النبيل المترف. فان أردت ملحاً أن تعرف سبب ذلك الضجر والقلق، فاعلم أن الرجل المترف لا يكره شيئاً كما يكره السأم، ولا يشفق على نفسه من شيء كما يشفق من الملل، وليس يمل الانسان المترف المرهف مثل معاشرة من لا يشاكلونه. وكان الملك قد فرض على نيافة الكاردينال النبيل أن يقوم عنه وباسمه باستقبال وفد سفراء الفلاندر والاحتفاء بهم، وذلك الوفد هو الذي أحضر العروس الملكية الأميرة مرجريت لتزف الى ولي العهد. فاذا علمنا أن أعضاء هذا الوفد ممثلو شعب الفلاندر في مجلسه النيابي، علمنا أنهم لم يكونوا سفراء بمعنى الكلمة، ولا نبلاء كما تعرف فرنسا النبلاء، وانما هم حفنة من التجار والزراع وأصحاب الحرف. لا رقة فيهم ولا نبالة، وليس السائل الذي يجري في عروقهم ذا لون أزرق كذلك السائل الذي يفترض الكاردينال أنه يجري في عروق النبلاء ممن هم على شاكلته.

ولم يكن سوء ظن الكاردينال النبيل بضيوفه السفراء الفلمنكيين رجماً بالغيب أو رهناً بالسماع، فقد خبرهم قبل ذلك حين زاروه في قاعة مكتبه، فاذا هم جماعة من الأحلاف جعلوا بسط قصره الأنيقة الفاخرة وكأنها طريق زراعي لكثرة ما تركوا عليها من الأوحال العالقة بأحذيتهم الغليظة.

وهو الآن يروض نفسه على تكرار ذلك العذاب، باستقبال هؤلاء الضيوف في هذه الحفلة وبمؤانستهم في هذه المقصورة، و يسائل نفسه كيف تراه يظهر احترامهم أمام هؤلاء الألوف من أهل باريس، وهم لا يمتازون عنهم بشيء على الاطلاق، وانتهى تساؤله الى أن هذه المهمة هي أشق وأدنا ما طاب لجلالة الملك أن يكلفه به من المهام.

وفي هذه اللحظة جلجل صوت الحاجب من جديد:

ـ السادة مبعوثو سعادة دوق النمسا!

وقد كان هؤلاء هم أعضاء وفد الفلاندر التي تنسب الى دوق النمسا في المراسم الرسمية، فهب الكاردينال واقفاً، والصق فوق فمه أعذب ابتساماته الدبلوماسية، ثم استقبل الوفد على باب المقصورة بما يستقبل به الأمراء العظام. وكان عدد أعضاء الوفد ثمانية وأر بعين رجلا، وعلى رأسهم رجل طو يل القامة عظيم الهامة. وفي مؤخرتهم رجل أطول منه وأضخم تبدو على ملابسه الرثاثة، فحال الحاجب بينه و بين الدخول من باب المقصورة غير مصدق أنه من أعضاء ذلك الوفد. ولكن الرجل لم يغضب، بل دفع الحاجب في بساطة وحزم ثم دخل وهو يصيح بصوت كالرعد لفت أنظار كل من في القاعة:

ـ أما ترى أيها الحمار أنني منهم؟

ـ عفوك يا سيدي. ما اسمك؟

ـ جاك كو ينول، وصناعتي دباغ جلود.

فحار الحاجب كيف يقدمه بهذه الصناعة الحقيرة، فصاح يعلن مقدمه قائلا:

ـ السيد جاك كو ينول من كبار الدولة في مدينة جنت وعندئذ صرخ كو ينول بصوت سمعه الناس جميعاً:

ـ كلا. بل كو ينول دباغ الجلود!

فسرت بين الناس همهمة اعجاب بجراءته. والواقع أن الرجل كان معروفاً في بلاده أنه صديق الشعب، وكان ديموقراطياً بمعنى الكلمة شديد الاعتزاز بشخصيته شديد الكراهية للرسميات ومظاهر الأبهة الارستقراطية.

والجماهير كالحيوانات تدرك بالسليقة من الذي يعطف عليها فسرعان ما أدرك الباريسيون الموجودون في القاعة الكبرى أن ذلك الرجل منهم وأنه يحبهم.

ولم يكن استقبال هؤلاء السفراء بالتجلة والاكرام هو كل ما كتب للكاردينال تلك الليلة من عذاب، بل كانت هناك في كأس الهوان بقية ينبغي أن يتجرعها حتى الثمالة.

ولعل القارىء لم ينس بعد ذلك السائل الجسور الذي اقتعد سياج المقصور الملكية، فان ذلك الرجل لم يزايل مكانه ذاك عندما دخل الكاردينال وحاشيته، بل لم يلق اليهم بالا وظل على تحريك ذراعه المشوه والتلويح بثيابه الممزقة، وهو يكرر بطريقة آلية قوله:

ـ احسان لله يا محسنين!

ولعل هذا المتسول ـ واسمه كما نعلم كلوبان تريفو ـ هو الوحيد في هذه القاعة الذي لم يلتفت الى ما كان بين كوينول والحاجب من مشادة، ولكن اتفق أن اختار كوينول لنفسه مكاناً خلف المكان الذي كان ترويفو قد تخيره لنفسه فوق السياج، وشدما دهش الناس حين راوا كوينول ينحني في مكانه و يرجع الطرف في ذلك المتسول الجريء، ثم يضع كفه فوق كتفه كما يفعل الاصدقاء، وتنبه كلوبان ترويفو الى وجود تلك اليد فالتفت وراءه، وظهرت على وجهي الرجلين علائم الدهشة، ثم علائم التعاطف والتعارف، ثم تصافحا باليد تصافح الأنداد، وانهمكا بعد ذلك في حديث خافت، غير مكترثين بالألوف التي في القاعة ولا بالعشرات الذين في المقصورة، وكانت أنظار الجميع هنا وهناك مسلطة عليهما.

وكان هذا المنظر حرياً بطرافته أن يثير في الناس الدهشة الشديدة، التي لم يلبث أن تحولت الى عاصفة من الضحك أمام هذه النكتة العملية، فنظر الكاردينال حيث ينظرون، وكان من قبل مشغولا بالترحيب بضيوفه، فرأى جانباً من ثوب ترو يفو المهلهل فظن أن الرجل تسلق المقصورة كي يستجدى كبار الزوار فثار لهذه الجسارة وصاح:

ــ يا ناظر القصر، اقذف بهذا المخلوق في النهر!

وعندئذ صاح كو ينول بدون أن يتخلى عن يد كلوبان التي كانت في يده:

ــ ما هذا الذي تقول يا سيدي الكاردينال؟ هذا صديق من أصدقئي.

وسمع الناس في القاعة هذه العبارة، فدوت أكفهم بالتصفيق وتصايحوا من كل صوب هاتفين لكو ينول، فقد تربع الرجل بمسلكه هذا فوق عرش قلوبهم. أما الكاردينال فلم يسعه الا أن يعض شفته حتى كاد يدميها، وهو يصب في سره اللعنات على جلالة الملك.

وغنى عن البيان أن صديقنا القديم بيير جرنجوار كان طول هذا الوقت يكاد ينشق من الغيظ، محاولا انقاذ ما يمكن انقاذه من مسرحيته، فكان يصرخ في الممثلين المسمرين في مكانهم أن يستأنفوا التمثيل، وأن يرفعوا أصواتهم ما وسعهم أن يرفعوها، كي يستلفتوا اليهم الأنظار، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، لأن الأنظار جميعها كانت متعلقة بصاحب النيافة، ثم بأصحاب الجلافة سفراء الفلاندر، وكانت حادثة كو ينول والشحاذ ترو يفو ثالثة الاثافي.

والواقع أنه كان هناك سبب آخر ايضاً لم نكن نحب أن نعترف به اكراماً لخاطر صديقنا جرانجوار، وهو أن الجمهور قد بدأ يسأم ذلك الفصل التمهيدي الممل.

وانتهز جرانجوار بعد ذلك فرصة هدوء الناس نسبياً، فمال على أذن جاره وقال له:

ـ ألا ترى يا سيدي أنه يحسن بنا أن نستأنف؟

ـ نستأنف ماذا؟

ـ التمثيلية طبعاً.

ـ كما تحب.

فأول جرانجوار ذلك الرد السلبي المائع بأنه موافقة حماسية،فأخذ يصرخ كأنه يطمع في تزعم مظاهرة:

ـ التمثيل.. التمثيل!

وكان من سوء حظه أن سمعه جيهان وهو منبطح في مكانه فوق النافذة، فصاح بصوته الجهوري، وسرعان ما صاح معه أصحابه المحيطون به:

ـ لا تمثيل. لقد سئمنا هؤلاء المذارين، فمن هذا الحيوان الذي يطالب بالتمثيل؟

ولكن ذلك لم يفت في عضد المؤلف الهمام، فأنشأ يصرخ من جديد، وبذلك أزداد الهرج والمرج بين المعسكرين، فاستلفت ذلك نظر الكاردينال، فسأل ناظر القصر:

ـ ما هذه الضجة يا حضرة الناظر؟

ـ هل يسمح مولاي الكاردينال لهؤلاء الأوغاد بأستئناف التمثيل؟

ـ استمروا، أستمروا. فالأمر عندي سيان، وسأشغل نفسي ما طالت الرواية بحبات مسبحتي!

وفعلاً بدأت الاشخاص المسمرة على المسرح تتحرك وتتكلم، وتنفس جرانجوار الصعداء وعاودته الأحلام في الشهرة والمجد،لأنه لم يكن قد

سمع أشارة الكاردينال الى مسبحته، بيد أن تلك الآمال المتجددة لم تكن نصيبها خيراً من نصيب سابقاتها. ففي أثناءالتمثيل، كلما أوشك الاندماج في الجو أن يتم، كانت عصا الحاجب تطرق الارض بشدة و يصيح معلنا قدوم ضابط في حرس الملك أو مستشار في البرلمان، حتى غدا الامر ولا طاقة للمسكين باحتماله، وتبددة جميع آماله التي عقدها على نجاح روايته. وكلما تلفت وجد الناس منصرفين عن الانصات، فيما عدا صاحبتيه المتواضعتين جيزيل ولينيا. فقد كانتا تسألانه على الدوام عن مغزى ما تقوله الممثلون، الى أن قضى على الرواية بضربة أخيرة وجهها اليها جان كو ينول، الذي هم واقفاً على قدميه وصاح في الناس بصوت جهوري:

ـ لست أدري يا أهل باريس ما الذي يعجبكم في هذا التمثيل؟ فلست أرى الا بضعة أشخاص وكأن كل واحد منهم يهم بالانقضاض على اخيه، فليس في الرواية شيء طريف شائق، والخصام والجدال لا يتعدى طرف اللسان. وقد سلخت هنا نصف ساعة أنتظر أن يفضى هذا الجدل الحامي ولو الى لكمة واحدة، ولكن خاب ظني، فليتهم اذن تركوا الخصام والجدال وأمتعوا أنظارنا برقصة جميلة أو شنفوا آذاننا بغناء مستطاب، ونحن في بلادنا الفلاندر نحتفل في هذا اليوم بما هو أحسن، فننتخب أمير البلهاء. وطريقة الانتخاب ديموقراطية قائمة على تكافؤ الفرص فيشترك جميع الحاضرين في الاقتراع. وطريقة ذلك غاية في السهولة: اذ نضع في فتحة أحد الابواب... ولكن الا يحسن أولا أن أسألكم هل تفضلون انتخاب الامير أم الانصات لثرثرة هؤلاء المهذارين؟

فصاح كل من في القاعة:

ـ فلتسقط الرواية. الموت للمثلين. ليحيا أمير البلهاء!

ـ اذن أشرح لكم طريقتنا في انتخاب الامير: نضع لوحة مثقوبة في فتحة أحد الابواب، بحيث يتسع الثقب لمرور رأس انسان. وكل من آنس في نفسه الكفاءة لمنصب أمير البلهاء يطل برأسه من الفتحة، فمن

وجدناه أبشع المرشحين خلقة انتخبه الحاضرون بأغلبية الاصوات، ثم طفنا به محمولا على الاكتاف في شوارع المدينة، ونصبنا له في الليل مهرجاناً على ضوء المشاعل. فما قولكم أيها السادة؟

وهم جرانجوار أن يعترض معلنا استنكاره الشديد لهذه الاهانة الهمجية لعرائس الشعر والفن الرفيع، ولكنه حشى العاقبة أمام هتاف الموافقة والاستحسان الذي قوبل به اقتراح كوينول من جميع الموجودين في القاعة، فلوى ضلوعه على جمر الغضب والقهر، ولاذ بالصمت الممض.

أمير البلهاء

وفي أسرع من رجع الصدى كان الجميع قد أعدوا لانتخاب الامير عدته على الوجه الذي بينه لهم كو ينول. واشترك التجار واطلاب والسوقة بأيديهم في التنفيذ. وقد وقع الاختيار على المحراب الصغير المواجه للمائدة الرخامية الكبيرة، كي يكون مسرحاً للمباراة. ذلك أن هذا المحراب يتألف من حجرة صغيرة لها نافذة صغيرة مستديرة من زجاجوردي اللون فحطموا ذلك الزجاج، وتقرر أن يدخل ذلك المحراب من الخلف كل من يرشح نفسه للقب أمير البلهاء، فيطيل برأسه من هذه الكوة، ومن أحتمع على اختياره رأى الحاضرين كان هو الامير. و بذلك بدأت أكبر مباراة في الدمامة و بشاعة الخلقة.

ولم تلبث حجرة المحراب أن اكتظت بالمتبارين ثم أغلق من دونهم الباب و بقي كو ينول في المشرفة الملكية يصدر الاوامر و ينظم المباراة.اما الكاردينال فكان ثاني اثنين لم ترقهما هذه الصهبة، أولهما صاحبنا جرانجوار. وقد تعلل الكاردينال لضيوفه الفلمنكيين ببعض المشاغل، و باقتراب موعد صلاة العشاء، فانسحب مع بطانته من رجال الكهنوت. ولكن شتان خروجه ودخوله: فلئن أثار دخوله اهتماماًبالغاً في صفوف الناس، فأن خروجه لم يحرك من أحد ساكناً ولم يستلفت نظراً. وذلك دليل جديد على أن الجماهير لا تعرف الوفاء ولا تعرف الثبات، فهي كل ساعة في شأن، فمنذ ساعة كانت قبلة أنظارها طلعة الكاردينال ومن حف به من أكابر الرجال، أما الآن فقبلة الأنظار نافذة محطمة تطل منها سحن نكراء تستبق أيها أبشع منتظراً!

وبدأت المباراة فكان أول وجه أطل على الناس له شفتان كأنهما فم ثور، وعينان مقلوبتان حمراوان، وجبين مجعد كأنه جلد حذاء بعد عهده بالتلميع، فضج النظارة بالهتاف والتصفيق.

أطل وجه ثان وثالث ورابع، وهكذا دواليك. فكان كل وجه من هذه الوجوه يقابل بضجة الهتاف والصفير والدق بالاقدام والنكات اللاذعة.

وأما جرنجوار فقد تحمل الصدمة بشجاعة، ثم عن له بعد ذلك وهو يتمشى أمام خشبة المسرح أم يمضي الى المحراب. و يطل برأسه على الناس فيخرج لهم لسانه، ولكنه لم يلبث أن تجلد وكظم غيظه قائلا:

ـ ان هذا لا يليق بنا فالانتقام عمل وضيع، و يحسن بنا أن نكافح، واعتقادي أن سلطان الشعر على الناس عظيم، فلأجرب استمالتهم، وسنرى هل يكتب الفوز في النهاية لقلائد بيانى أم لهذه الوجوه التي مسخها الله.

وفي هذه اللحظة تعالت الاصوات من كل مكان:

ـ مرحى مرحى! المجد لله في الاعالي! هذا أمير البلهاء و لامراء! فليحيا الامير

فنظر جرنجوار الى النافذة المحطمة نظرة أورثته ألف حسرة، وعذر الناس في اعجابهم الجنوني الذي اشتركوا فيه جميعاً، بغير استثناء كو ينول والمتسول كلوبان ترو يفو.

واندفعت الجماهير نحو القاعة، لتبارك أو لتتبرك بالامير الجديد، وهم يحسبون أن ذلك الوجه قد قلبه صاحبه قلبا مصطنعا، فما كانت أشد دهشتهم حينما تيبنوا انه بشع بشاعة فطرية، فازدادت حماستهم، وكأنهم عثروا على كنز فريد.

كان وجه هذا المخلوق لا يشبه غيره من وجوه البشر، فقد انطمست احدى عينيه، وتألقت العين الاخرى تحت حاجب أحمر اللون كث



وتصايح الناس : هذا كازيمودو . هذا هو قارع الأجراس . هذا هو أحدب نوتردام

الشعر. وكان رأسه غاية في الضخامة، يعلوه شعر أحمر مشعث. و بين كتفيه حدبة كبيرة. وأما أنفه فكان صغيراً لا يكاد يبين، ومن تحته فم كبير بشع كأنه حدوة الحصان، وقد برزت منه أسنان معوجة نافرة منها ما يشبه ناب الفيل ضخامة و بروزا. وأما هيكل جسمه فكان لا يقل عن ذلك غرابة، فساقاه متباعدان لا سبيل الى التقائهما الا عند الركبتين. وذراعاه آية في الضخامة والقوة. فهو أشبه شيء بمارد من مردة الاساطير في ضخامته وقوة بنيته، ولكنه يختلف عنها بانعدام التناسق بين اعضائه.

وما كاد الناس يخرجون بهذا المسخ من المحراب، حتى عرفه أكثر الحاضرين، وتصايحوا من كل صوب قائلين:

ـ هذا كازيمودو. هذا هو قارع الأجراس. هذا هو أحدب نوتردام. هذا هو الاعرج.

نعم فقد كان كازيمودو يجمع الى صفاته السالفة الذكر مزية العرج.

وعندئذ صاح طالب ماجن:

ـ أيتها النسوة الحبالي جميعاً، تنحين عن الطريق!

فأرتفعت عاصفة من الضحك، وصاح جيهان:

ـ والنسوة المتشوقات للحمل أيضاً، فليحذرن!

والواقع أن جميع النساء كن قد أخفين وجوههن في طيات ملابسهن أو أيديهم غير منتظرات هذه الدعوة الساخرة، وصاحت احداهن:

ـ يا له من نسناس دميم!

فقالت أخرى:

ـ ان قبحه لا يقل عن شرهه وسوء نيته.

فقالت ثالثة:

ــ انه أبليس بلحمه ودمه.

وقالت رابعة:

ــ صدقت، فمن سوء طالعي أن أسكن قريباً من كنيسة نوتردام، وفي جوف الليل أسمعه وهو يبرطع بحوافره الشيطانية فوق سقف الكنيسة.

ــ وا مصيبتاه! هل يعيش في الليل فوق السطح مع القطط السوداء؟

ــ طبعاً. ولا شك أيضاً أنه يجتمع باخوانه العفاريت.

ــ لا شك، وهو يركب مسافرا البهم مقبض مكنسته.

ــ وأنا أيضاً جارة من جارات كنيسة نوتردام. وكثيراً ما أسمعه في الليل طائراً فوق البيوت، يلقي من فوهات المداخن بالتعاو يذ النجسة.

ــ يا للأحدب الدميم!

واذا كانت النساء قد فزعن من كازيمودو ذلك الفزع. فأن الرجال على العكس من ذلك، كانوا أشد ما يمكن سروراً و مرحاً وحماسة.

أما كازيمودو نفسه، قبلة تلك الانظار ونوضوع هذه الضجة كلها،فوقف في فرجة باب المحراب وقفة هادئة رزينة، وقد ترك نفسه على سجيتها، كي يشبع الجماهير اعجابا به كما يشتهون فتقدم منه طالب من جماعة الطلاب المجان. وانفجر ضاحكاً في وجهه بغتة، على مقربة شديدة منه، فلم ينطق كازيمودو بكلمة، ولكنه أمسك بالطالب الشاب من خاصرته ورفعه بيد واحدة ثم قذف به فوقع على بعد عشرين خطوة على رؤوس الناس؛

وأدهشت هذه القوة كو ينول، فاتجه صو به وصاح به:

ـ انك أجمل انسان دميم الخلقة فيمن رأيت طوال حياتي!

ثم ضربه على كتفه في سرور واغتباط، فلم يتململ كازيمودو، فاستطرد كو ينول:

ـ كان يسرني جدا أن أتعشى معك لولا ان هذه مسألة يبدو انها تكلفني أكثر من عشرة ريالات. فما رأيك في هذا أيها البطل؟

فلم يجبه كازيمودو بشيء، فصاح دباغ الجلود:

ـ ماذا أيضاً بحق السماء، هل أنت أصم أيضاً؟

وكان كازيمودو في ابحقيقة أصم.

بيد ان كازيمودو ضاق آخر الأمر ذرعاً باشارات كو ينول، و يبدو أنه أساء فهمها، فتحول اليه بغتت وهو يصرف بأسنانه، فتراجع العملاق الفلمنكي كما يتراجع الكلب أمام قط متحفز.وتراجع من ورائه الناس حتى صارت الحلقة الفارغة التي يتوسطها كازيمودو قطرها أكثر من خمس عشرة خطوة، وعندئذ تطوعت أمراءة عجوز فأكدت لكو ينول أنه أصم، فصاح كو ينول عندئذ وهو يطلق ضحكة مدو ية:

ـ أصم؟ تبارك الله! هو اذن أمير البلهاء ولامراء.

وكان جيهان قد هبط أخيراً من فوق النافذة التي لزمها من اول النهار، فاقترب من مركز الدائرة وهو يقول:

ـ إني أعرفه، فهو قارع النواقيس لدى أخي الأسقف، طاب يومك يا كازيمودو.

وكان الطالب الذي قذف به كازيمودو لا بزال يتحسس اضلاعه، فعلق على ذلك بقوله:

ـ تبا له ولأخيك يا جيهان، فأنه والله ابليس صور انساناً، وفيه قوة سبعة عمالقة مع أنه أحدب، و يجري بسرعة مع أنه مقوس الساقين

أعرج، و يرمقك بنظرة حادة، مع أنه أعور، و يصغي الى كلامك، مع أنه أصم، ثم من يدري أهو أخرس أم لا؟

فقالت العجوز:

ـ بل أنه يتكلم، ولكن حينما يشتهي الكلام، ولم يولد أصم ولكنه فقد سمعه من ادمان قرع النواقيس، أما الخرس فهو مبرأ منه .

فقال جيهان:

ـ لا ينقصه الا هذه الآفة كي يكون تام الصفات.

وفي هذه الاثناء كان فريق من الرعاع والخدم والنشالين والطلاب قد انطلقوا ليفتشوا عن ثوب كهنوتي مزركش وطيلسان للأمير الجديد. وسرعان ما عادوا، فتركهم كازيمودو يلبسونه هذه البزة وهو ساكت مقطب الجبين، ثم أجلسوه في رفق فوق محفة. فجلس تحف به المهابة والوقار. والواقع ان كبرياءه الصامتة كانت تصفي عليه وقاراً حقيقياً. وتولى حمل المحفة اثنا عشر رجلا هم باوران امير البلهاء. فانتشرت على وجه المخلوق الدميم أمارات تجمع بين السرور والازدراء، وقد وجد نفسه أرفع مقاماً من جميع الناس من حوله.

وهكذا خهرج موكب أمير البلهاء من قصر العدل و بدا طوافه في شوارع المدينة.

أزميرالدا الحسناء

كان جرنجوار طيلة ذلك المنظر الذي أعقب انتخاب كازيمودو أميراً للبلهاء صامداً للعاصفة. بحث الممثلين على الاستمرار في التمثيل برغم كل تلك الضجة، غير يائس يأساً تاماً من رجوعهم اليه هاجرين ذلك اللهو المبتذل. فلما خرج موكب كازيمودو وعلى رأسه كو ينول، وتبعه كل من كان في القاعة، تنفس جريجوار الصعداء وقال يهنىء نفسه.

ـ الحمدلله، لقد جرح جميع المقاطعين أخيراً!

ولكن لسوء حظه كان جميع المقاطعين هم أنفسهم جميع المشاهدين، وفي طرفه عين القى القاعة الكبرى في قصر العدل تكاد تكون خاو ية إلا من عدد قليل من الحاضرين متناثرين هنا وهناك، مستندين الى الاعمدة. كلهم من الشيوخ والعجائز والأطفال الذين أتعبهم التهريج فقعدوا عن متابعة الموكب. كذلك بقي عدد من الطلاب أمام النوافذ يتفرجون على موكب كازيمودو وهو يخترق الساحة والى هؤلاء أشار جرنجوار محدثاً نفسه:

ـ لقد بقي نفر من الناس لمشاهدة ختام مسرحيتي. وهم قلة، ولكنهم نخبة من صفوة القوم. وهم خير من كثرة جاهلة.

ولكنه لم يلبث أن تلقى صدمة قو ية، عندما حان بعد دقائق أن تعرف قطعة موسيقية لها أهمية خاصة في الرواية لمناسبة وصول السيدة العذراء، ولكن لم تعزف هذه القطعة. ولما تحرى جرنجوار الأسباب اتضح له أن فرقته الموسيقية قد خرجت لتعزف الحانها الشجية تحية لموكب أمير البلهاء. فأشار على الممثلين أن يضربوا صفحاً

عن هذه القطعة، واقترب من مجموعة من المشاهدين القلائل. خيل اليه أنهم يتحدثون فيما بينهم معلقين. على الرواية فأراد أن يتسمع تلك الآراء فسمع الحوار الطريف التالي.

ـ أتعرف بالسيد شنيتو قصر يافار الذي كان مملوكاً للدوق نيمو؟

ـ طبعاً، فهو مواجه لكنيسة براك.

ـ إذن فاعلم أن الحكومة قد أجرته بستة جنيهات في السنة.

ـ يا للمصيبة! أن ايجارات المساكن ترتفع ارتفاعاً فاحشاً.

فهز جرنجوار رأسه ثم قال:

ـ كذا كذا. ولكن لا بأس. فالآخرون يسمعون.

وفي هذه اللحظة صاح أحد الطلاب المطلين من النافذة في آخر القاعة:

ـ أيها الرفاق! أزميرالدا! أزميرالدا في الميدان.

فكان لهذه الكلمة وقع سحري وأسرع كل من كان موجوداً في القاعة نحو النوافذ، ومنهم من تسلق الجدران لينظروا، ثم تصايحوا:

ـ أزميرالدا! أزميرالدا!

وفي الوقت نفسه ارتفعت من الميدان عاصفة من التصفيق، وتساءل جرنجوار وهو يضرب كفاً بكف في يأس شديد:

ـ ما معنى أزميرالدا؟ يا الهي!

والتفت نحو المسرح فوجد التمثيل معطلا، فقد كانت هذه هي اللحظة التي ينبغي أن يدخل فيها جوبيتير حاملا صواعقه. ولكنه رأى جوبيتير واقفاً في القاعة أمام المسرح ولا يريد أن يتحرك فصاح به مغضباً:

ـ يا ميشيل جيبورن! ماذا تصنع هنا؟ أليس هذا دورك؟ أصعد اذن.

ـ واأسفاه! لقد استولى أحد الطلبة على سلم المسرح وانصرف به.

فنظر جرنجوار وتبين له صدق ما قال جوبيتير. وبذلك صارت المواصلات كلها بين القاعة والمسرح مقطوعة، فصاح:

ـ يا للمصيبة! ولماذا أخذ هذا السلم؟

ـ ليتسلقه و يتفرج من النافذة على ازميرالدا.

فكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، أو الضربة القاضية كما يقولون في الملاكمة، فودع آماله كلها في اتمام الرواية، وغادر القاعة منسحباً، فكان بهذا آخر من ترك الميدان، مثله في ذلك كالقائد الذي أدى واجبه حتى النهاية.

□

ولما كان الليل يهبط في ساعة مبكرة في شهر يناير، فقد كانت شوارع باريس معتمة حينما غادر جرنجوار قصر العدل، فسره ذلك، لأنه كان يطمع في الوصول الى حارة مظلمة منعزلة يسعه أن يخلو فيها الى نفسه ليفكر في حاله، لغل الفيلسوف فيه يتمكن من تضميد الجراح التي مني بها الشاعر. ولكن كان على الفلسفة أن تواجه مهمة أصعب من تضميد الجراح الشاعرية المعذبة، فانه لم يكن يدري أين يجد مكاناً يبيت فيه ليلته هذه. فبعد ذلك الاجهاض الذي منيت يه مسرحيته، لم يكن يجسر على العودة الى المكان الذي يقطنه من قبل قبالة ميناء التبن، فقد كان كل أمله في سداد الأجر المتأخر معلقاً بحصوله هذه الليلة على مكافأة سنية.

وبعد أن جلس في مكان ما يقلب وجوه الموضوع، اتضح له أن المسألة ليست من السوء بحيث يظن، فان جميع أرصفة شوارع باريس ما زالت رهن تصرفه في أي وقت يشاء، وتذكر في الحال أنه كان قد رأى منذ أسبوع عتبة بيت رخامية، كانت قد لفتت نظره لنظافتها وبعدها عن تيارات الهواء، وهي واقعة أمام منزل مستشار في برلمان باريس. فخطر له أنها كأنما قد صنعت خصيصاً لتصلح ملاذاً لمتسول أو لشاعر وشكر العناية على أنها أخطرت على باله هذه الفكرة الموفقة.

ولكن فيما كان يجتاز ساحة القصر كي يخترق متاهات شوارع باريس، بصر بموكب أمير البلهاء وقد تضخم وزادت ضجته، وحمل

أكثر من فيه المشاعل، وفي مقدمة الجميع فرقته الموسيقية، فأثارت هذه الزفة شجونه، فولى منها فراراً.

وبعد أن هام على وجهه مدة، وجد نفسه بجوار سور الحدائق الملكية، في حي غير مرصوف فغاص قدماه في الطين، وتخلص بعد جهد جهيد من هذه الحارة ليصل الى شاطىء الرين أمام جزيرة صغيرة بدت لعينيه كأنها كتلة سوداء عائمة على صفحة النهر البيضاء، وتمنى لو كان الآن في تلك الجزيرة بعيداً عن ضجة باريس، وخطر له بعد ذلك أن يلقي بنفسه في النهر فينتحر غرقاً، ولكنه لم يلبث أن قال:

ـ ما كان أشد سروري بذلك لولا أنني أكره الماء البارد!

وخطرت له فكرة بدت أقسى وأسوأ من الانتحار، فعزم على تنفيذها انتقاماً من نفسه، وهي التوجه الى قلب باريس والاندماج في المواكب الصاخبة. ثم علل نفسه قائلا:

ـ فلأذهب الى ساحة الاعتصاب، فانهم قد أشعلوا هناك محرقة كبيرة، وإذا فاتني الطعام فسوف لا تفوتني التدفئة.

موكب الأحدب

ساحة الاعتصاب، وما أدراك ما ساحة الاعتصاب: ميدان مترامي الآفاق، ليس في شكله تناسق أو انتظام، أحد أضلاعه رصيف نهر السين، أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فبيوت متلاصقة قميئة تبعث في النفس الكآبة والوجوم، كلها مبنى بالحجر أو بالخشب. فلو كنت من هواة الآثار وفنون المعمار، لشاقك ولا ريب أن تتجول في هذه الساحة في ضوء النهار، كي تستمتع بتباين طراز هذه الأبنية التي تمثل نماذج أبنية البيوت السكنية في القرون الوسطى، فيما بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر.

وفي منتصف الضلع الشرقي من ساحة الاعتصاب تقوم كتلة ضخمة من الأبنية يظهر فيها التنافر والتباين لأول وهلة، لأنها في حقيقة الأمر مكونة من ثلاثة أبنية كبيرة متلاصقة تعرف بثلاثة أسماء مشهورة وعاها التاريخ: فبناء فيها يعرف باسم بيت ولي العهد، والبناء الآخر يعرف باسم بيت الأعمدة، نسبة الى تلك الأعمدة الضخمة التي ترتفع فوقها طوابق البناء الثلاثة، والبناء الثالث هو دار المدينة، أي دار البلدية وغرفة التجارة، ففي هذا المكان المثلث الأصل تجتمع لباريس أكرم الأغراض، ففي بيت ولي العهد القديم بيعة للصلاة ومحكمة للقضاء، وقاعة اجتماع لكبار التجار ووجهاء المدينة، ومخزن حافل بالسلاح للدفاع عنها حين يقتضي الأمر دفاعاً.

الى هذه الساحة إذن وجه بيير جرنجوار خطاه، ولكن الوقت لم يكن كما نعلم في رائعة النهار وانما كان ليلا، وكان ليلا قرأ، وفضلا عن

هذا كان شاعرنا يرتجف لا لشدة البرد فحسب، بل لأنه كان مبتل الثياب من قمة الرأس الى أخمص القدم.

وما كان الجو ماطراً حتى يبتل من دون الخلق في هذه المدينة، فمن أين جاءه ذلك البلل الذي أكمل عليه شقوته وأتم بليته؟

إن شاعرنا سلك في ذهابه الى ساحة الاعتصاب طريق قنطرة الطواحين، كي يتجنب زحام الناس في موكب الأحدب، حنقاً منه وحقداً على هؤلاء الرعاع الذين أفسدوا عليه شاعريته وأضاعوا عليه فرصة المجد الأدبي، وبددوا ما عقده من أمل في الغنى واليسار منذ ليلته هذه، فاذا هو شريد طريد، خاوي الوفاض بادي الأنقاض، لا يملك شروى نقير، ولا يجد مأوى يلوذ به في ذلك الليل الزمهرير، يثقله الدين، وليس له من الحياةو الدنيا الا ما يستر جسده من قميص رقيق، وحذاء عتيق، والا ما يحملان في طياتهما من ذلك الماء اللعين. ففي أثناء مروره فوق تلك القنطرة، كانت الطواحين التي تدار بتيار الماء في مجرى النهر، تقذف المياه الى مسافات بعيدة، فأغرقه الرشاش، فراح يسب أهل باريس الذين أفسدوا عليه لقمته، وبددوا نشوته، ثم ها هي الآن كي يعدوا لقمته من دقيق هذه الطواحين قد أغرقوه، فهو جائع مقرور.

فلا عجب إذن أن يرى من حقه أن يلتمس من الجاني تعو يض ما جناه، وأن يتجه الى ساحة الاعتصاب ليلتمس في نار أهل باريس الموقدة في تلك الساحة دفئاً من قشعريرة، ولعله أن يجد في مأدبة تلك الليلة المبذولة للجماهير ما يسد به الرمق و يقيم الأولاد، ولو ليلته هذه ريثما يتنفس الصبح، ولعله يحمل اليه في أطوائه فرجاً.

حث جرنجوار الخطى إذن الى تلك الساحة، وأخذ بصره على البعد وهج تلك النار المشتعلة في وسط الميدان، فلما اقترب يحدوه الأمل إذا به يجد ببنه وبين ذلك المصطلى سداً حائلا، لا من الحجر، بل من أجسام البشر، فقال محدثاً نفسه ــ وقد كانت في شاعرنا تلك النزعة

الى مخاطبة نفسه بما يعتلج في صدره، لأنه كان يخال الشعراء الحقيقيين يجرون على هذه السنة:

ـ لعنكم الله يا أهل باريس! أتضنون على حتى بهذا الدفء اليسير، بعد الذي أصبتموني به من أذى ومنعتموني عنه من خير ومجد؟

وهم أن ينصرف، بيد أنه رأى الناس ثابتين في مكانهم في شبه حلقة، وأنهم لا يتحركون ولا يتكلمون ولا يتزاحمون، وإنما هم قد شخصت أبصارهم الى شيء بعينه كالمسحورين. ولفت نظره أن الدائرة أوسع بكثير من أن تسمح بالاصطلاء، فثار فضوله واقترب من ذلك الجمع الحاشد، فاذا الناس لم يتجمعوا ذلك الجمع الكبير للذة النار وحدها ولجمال السنة اللهب المتراقصة، بل لجمال رقص من نوع آخر لا تعرفه النيران وإن كان له كفعل النار في عروق هؤلاء المشاهدين: ففي وسط تلك الحلقة، في متسع من الأرض أخلي بين النار وجموع الناس، كانت فتاة صغيرة السن ترقص على ضوئها.

ولم يدر جرنجوار لأول وهلة أنسية هي أم جنية، أم عروس من عرائس الحور، أو ملك من ملائكة الرحمن. فان جرنجوار ـ كما علمنا ـ شاعر وفيلسوف شكوكي، ما كان ليقطع في مثل هذا الموضوع ـ وهو ما هو من الخطر ـ برأي سريع، فوقف ينظر و يتأمل عسى أن يستبين و يستوثق.

ولم تكن الفتاة طو يلة القامة، بيد أن مرونة أعضائها ورشاقة حركاتها وانسياب قامتها جعلتها تبدو في عين الرائي بينة الطول، ةكانت تبدو في ضوء النار سمراء اللون، ولكن كان واضحاً جداً أن هذه البشرة الغضة تكتسب في ضوء النار ذلك اللون الذهبي الذي تتميز به نساء الأندلس الفاتنات، ولم تكن بشرتها فقط هي السمة الأندلسية فيها، وانما قدماها الصغيرتان أيضاً كانتا أندلسيين، فمن أين لها، إن لم تكن من بلاد الأندلس، تلك الرقة والدقة وخفة الحركة؟

وكانت الفتاة ترقص وتدور، فكأنها دوامة لا يستقر لها قرار، فوق بساط عجمي فرش على الأرض تحت قدميها. وكلما واجهتك في دورانها المتصل طالعتك عيناها الواسعتان السوداوان المتوهجتان، فيكاد تألقهما أن يطغى على لهب النيران.

ومن حولها وقف الألوف مسمرين في مكانهم، وقد شخصت اليها أبصارهم، وفغرت أفواههم، وكأنهم يهمون أن يلتهموا هذه الحورية وهي تصول وتجول وقد رفعت فوق رأسها ذراعيها البضين. وبرز من تحتهما صدرها الناهد في غلالتها الرقيقة، وثوبها الهفهاف ينحسر ثم يمتد، ويرتفع ثم يهبط، مع وقع ذلك الطبل الصغير، وأيضاً مع وقع القلوب الخافقة التي تصاحب حركاتها في توسل واعجاب وعبادة.

فقال جرنجوار لنفسه:

ـ ويح نفسي! هذه حورية، أو لعلها الاهة من الاهات الاغريق!

وفي هذه اللحظة ثارت ضفيرة من جدائل الراقصة فاحمة السواد، فانتثرت على وجهها، وسقطت منها على الأرض قطعة صغيرة من النحاس، فثاب الى نفسه قائلا:

ـ واهاً لي! إن هي الا غجرية!

وتناولت الفتاة بعد ذلك من فوق الأرض سيفين تبتنهما فوق جنينها. وجعلت تدور. بحيث يدور السيفان في عكس اتجاهها، فثبت لديه أنها من بنات الغجر، ولكن جمالها كان من السطوة بحيث غسل عنه ما شعر به من خيبة عندما صح لديه أنها ليست من بنات الحور أو آلهة الأساطير.

وكان من بين تلك الألوف التي وقفت تشبع أعينها المنهومة من هذه المأدبة الحافلة من مآدب الجمال، وتتراقص فوق وجوههم السنة تلك النار العظيمة، وجه واحد زاد عليها جميعاً في الاستغراق والاهتمام لكل حركة أو سكنة تقوم بها هذه الراقصة الحسناء. وكان هذا الوجه

وجه رجل في نحو الخامسة والثلاثين، صارم الملامح هادىء الأسارير، فيه وجوم ملازم. وكانت ثياب هذا الرجل تحجبها الجماهير المزدحمة حوله. ولكن الظاهر من أمره كان يدل على أنه قد شاب قبل أوانه، وأصابه الصلع، وكست جبينه الغضون، ولكن كانت عيناه تشعان ببريق ثاقب ينم عن شباب متوقد. وكانت هاتان العينان المتألقتان معلقتين بتلك الكاعب التي لم تجاوز عامها السادس عشر. وكان في الحين بعد الحين يهم بالابتسام رضى وانشراحاً، فتحزنه كآبته وتبدو ابتسامته كالحة كأنها التأوه الوجيع.

ولما شبعت الفتاة رقصاً، وان لم يشبع الناس، وأدركها التعب حتى لهثت أنفاسها، كفت، وصفق الناس لها تصفيقاً شديداً، وعندئذ صاحت الغجرية الحسناء:

ــ جالى!

فرأى جرنجوار عندئذ عنزة صغيرة، رشيقة الحركة، فياضة الحيو ية مذهبة القرنين والأظلاف، وحول رقبتهخا قلادة مذهبة، تقفز من حيث كانت جاثمة على طرف البساط، فتمثل أمام الغجرية، وترنو ببصرها اليها كمن يقول: «لبيك سيدتي»، فقالت:

ــ لقد حل دورك يا جالي.

ثم بسطت يدها الى العنزة بطبلتها الصغيرة وسألتها:

ــ في أي شهر من شهور السنة نحن يا جالي؟

فرفعت العنزة قائمتها الأمامية وطرقت الطبلة بها طرقة واحدة، لأن الشهر كان حقيقة هو شهر يناير، أول شهور السنة، فصفق الناس، وعادت الغجرية الى سؤالها:

ــ وفي أي يوم نحن من ذلك الشهر؟

فرفعت جالى ظلفها المذهب ودقت الطبلة به ست دقات، فقد كان

ذلك اليوم هو السادس من شهر يناير، فصفق الناس مرة أخرى وسألتها بعد ذلك:

ـ وكم الساعة الآن؟

فدقت جالي الطبلة سبع دقات، وعندئذ دوت في فضاء الساحة دقات ساعة بيت الأعمدة المطلة على الميدان سبع دقات، فاستولى على الناس العجب، وغمغم ذلك الرجل الأصلع المتجهم قائلا:

ـ إن وراء هذا لسحر ولا ريب...!

وسمعته الفتاة فارتجفت، ولكن عاصفة التصفيق لم تلبث أن غطت على هذه الملاحظة الفظة، فمسحتها من ذهنها، واستأنفت سؤال عنزتها:

ـ أتعرفين كيف يسير الكابتن جيشار قائد الحرس في مقدمة جنوده؟

فنهضت جالي على قائمتيها الخلفيتين، وأنشأت تتبختر في مشيها بكل وقار وخيلاء، مقلدة ذلك الضابط المشهور، فضج الناس بالضحك والتصفيق، ولما هدأت عاصفة الضحك، سألتها:

ـ والآن يا جالي، نحب أن ترينا كيف يتكلم السيد جاك شارمولي النائب العمومي حين يترافع أمام المحكمة الكهنوتية.

فأقعت العنزة عندئذ على عجيزتها، ورفعت قائمتيها الأماميتين في الهواء، ثم راحت تثغو ثغاء منغماً، وتهز قائمتيها هزات عصبية. فلو أنها كانت تتكلم الفرنسية الركيكية أو اللاتينية الأكثر ركاكة، لخالها الناس النائب العمومي بلحمه ودمه، فقد كانت تقلد حركاته ونبرة صوته تقليداً بارعاً، فضج الناس بالضحك والتصفيق ما استطاعوا، وصاح الأصلع:

ـ كفر، الحاد، سحر!

فالتفتت الفتاة ناحيته، فلما رأته رمت شفتيها احتقاراً ولم تعره اهتماماً. ثم بسطت يدها بالدف كي تتلقى فيه التبرعات، التي انهالت عليها فكانت كومة غريبة من أنواع النقد بين كبيرة وصغيرة ونحاسية وفضية. حتى إذا وصلت في طوافها الى حيث وقف جرنجوار، مد يديه بحركة لا ارادية الى سائر جيوبه ففتشها وقلبها، فلم يعثر فيها بالطبع على شيء. والفتاة واقفة ترنو اليه بمقلتيها الواسعتين الساحرتين الوطفاوين، والدف مبسوط في يدها، فشعر جرنجوار بحرارة الدفء لأول مرة في تلك الليلة المقرورة وقد تصبب جسمه عرقاً، ولو أنه كان قد عثر في قاع جيبه الخالي على كنوز الهند ومناجم بيرو، إذن لأغدقها على الفتاة ولم يستكثرها، ولكن كنوز الهند ومناجم بيرو لم تكن في قاع جيبه.

ولم يدر كيف ينجو من هذه الورطة، بيد أن السماء كتبت له النجاة منها على نحو غريب، فقد شاءت المصادفة المحضة أن يسمع الناس في تلك اللحظة صوتاً ثاقباً كأنه بومة تنعب في جوف الليل.

ـ أما آن لك أن تنصرفي أيتها الغجرية الآثمة؟

فتلفتت الفتاة متوجسة مذعورة، فاذا الصوت صادر من كوة قريبة في بناء عتيق يعرفه الباريسيون باسم برج رولان، فصاح بعض الواقفين:

ـ إنها الأخت جيدول الناسكة.

ـ وماذا تريد هذه المنكودة؟

ـ ألم يقدموا اليها عشاءها؟

ووجد جرنجوار في هذا الاضطراب فرصته، فاندس بين الناس واختفى عن الأنظار وقد ذكره لفظ العشاء بخواء بطنه، فأسرع الى المأدبة المبذولة على قارعة الميدان، ولكنه حين وصل اليها وجد الأيدي قد سبقته والأفواه، فلم يتيسر له من ذلك شيء، فانصرف ضاوياً خاوي

البطن حسيراً، لولا أن أخرجه من كآبته وحسرته صوت ملائكي كأنه شدو البلابل في الليلة القمراء. فان الحسناء حين انتهت من جمع النقود شكرت الناس بابتسامة عذبة ثم بدأت تترنم بأغنية اسبانية، فوقف ينصت لغنائها بحواسه جميعاً، فاذا صوتها كحسنها ورقصها ساحراً أخاذاً، لا تحيط بوصفه الكلمات، ونسي وهو يصغي جوعه وحرمانه. فقد كان مأخوذاً مسحوراً، ولئن لم يفهم من ألفاظ الأغنية ومعانيها شيئاً، إلا أنه استجاب لها باحساساته كلها، حتى لقد اغرورقت عيناه بالدموع.

وإن المتفرجين لفي مثل ما كان فيه من استغراق ونشوة، وقد سكنوا فلا تكاد تسمع لأنفاسهم حساً، وإذا بالصوت الناعب يشق ذلك السكون مرة أخرى:

ــ أولا تريدين أن تخرسي يا سليلة الأ بالسة؟

فتصايح الناس عندما رأوا مغنيتهم تكف عن الشدو:

ــ قبحك الله يا عجوز النحس، ونغصك كما نغصتنا.

ــ لماذا لا يتخطف الأ بالسة هذه الرعناء المنكودة؟

ووضع جرنجوار أصابعه في أذنيه لكي لا يبدد ضجيج السوقة ونعيب الناسكة العجوز حلم نشوته اللذيذ، ولكن كان مكتوباً عليه أن يبتلي بضجة أكبر من هذه الضجة، فنظر الى مصدرها ليرى عدوه القديم مقبلا.

وما كان ذلك العدو إلا أمير البلهاء، الأعور الأحدب كازيمودو، في موكبه الحافل وقد تضخم بمروره في طرقات المدينة بما انضم اليه من ألوف بعد ألوف من الغوغاء والمتشردين واللصوص ومن اليهم من حثالة الباريسيين. وكانت تشنف الأسماع في مقدمة ذلك الموكب فرقة موسيقية يعرف أنغامها جيداً، لأنها هي بعينها الفرقة التني كان مفروضاً أن تحيي حفلته التمثيلية.

وفي وسط تلك الهالة، كان بدر الدجى متربعاً في عرشه مرفوعاً في المحفة فوق الأعناق تحف به المهابة والجلالة، وتطفح سحنته العبقرية الدمامة بما لا قبل لنا بوصفه من إمارات الزهو والعنجهية، وهو يجيل طرفه الشائه في تلك الهامات التي لا تبلغ موطىء قدميه.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها أنه شخصية لها خطرها، وهو الذي ألف من الناس أن يلقوه دواماً بالمهانة والتحقير، والاشمئزاز والنكير.

ونحسبه كان يخال الناس قد أصابهم خبال أو منوا بالبلاهة، فقد كان لا يسمع شيئاً من ضجتهم لأن به ـ كما علمنا ـ صمماً من قرع الأجراس، ولكنه كان يرى حركات أيديهم، وتعلق أنظارهم به، وسرعان ما صدق لبساطته أنه أهل فعلا للمكانة التي رفعوه اليها، وللاجلال الذي يلقونه به.

و ينبغي ألا ننسى أن جانباً من شعور الناس بالهيبة كان شعوراً حقيقياً، فالأحدب كما عرفنا قوي البنية قوة هائلة، سريع الحركة غير مأمون البادرة، وتلك صفات ثلاث يحترمها الناس و ينطوون لها على إكبار.

وذلك كله خليق أن يصور لنا عجب الجماهير حينما وقع الحادث التالي وقد توسط الموكب ساحة الاعتصاب، قريباً من الحلقة التي كانت ترقص فيها الغجرية الحسناء. فقد تقدم رجل يشق الصفوف الى أن وصل الى المحفة التي تربع فوقها كازيمودو، فاختطف الصليب المذهب الكبير الذي كان أمير البلهاء يرفعه في يده شارة من شارات إمارته.

وكان هذا الرجل هو بعينه ذلك الأصلع العابس الذي كان يولي الراقصة الغجرية اهتمامه و يزعجها باتهامه إياها بالسحر. وقد تمكن

جرنجوار في هذه المرة أن يراه على هيئته الكاملة فاذا به يرفل في ثياب الرهبان، وعرفه على الفور، فغمغم قائلا:

ـ وي! إنه أستاذي السابق في كلية هرمس، الأب كلود فرولو، أسقف كنيسة نوتردام، فما الذي أغراه بهذا الوحش الدميم.

ولم يكن جرنجوار هو الذي دهش وذعر وحده، بل لقد ارتفعت صيحة الدهشة والذعر من أفواه الجماهير المحتشدة وقد رأوا كازيمودو الهائل يثب من المحفة الى الأرض، فأشاحت النساء بوجوههن صارخات كي لا يرين الأحدب وهو يمزق الكاهن إرباً.

وقفز كازيمودو نحو الأسقف، ولكن الأسقف لم يتراجع بل صمد له، فحدق الأحدب في وجهه ملياً، ثم خر أمامه على ركبتيه ساجداً، فمد الأسقف يديه وأخذ يمزق الطيلسان المزركش الذي يرتديه كازيمودو في غير شفقة ولا رحمة، والأحدب الهائل مطرق برأسه، لا يأتي بحركة ولا ينبس ببنت شفة، وقد عقد يديه فوق صدره.

وأخذ الناس، وكأن على رؤوسهم الطير، وهم يرون الأب فرولو منتصب القامة مرفوع الرأس، تفيض معالم وجهه الغائر الصدغين بأمارات الغضب والوعيد، والعملاق المتوحش مستكين أمامه، بل تحت قدميه في ذلة وضراعة.

وانتهى الحوار بأن وضع الأسقف كفيه فوق كتفي كازيمودو الهائلين، وأنشأ يهزه هزاً عنيفاً، ثم أومأ اليه بسبابته أن ينهض و يتبعه، فنهض كازيمودو على الفور وتبعه.

وحينئذ أفاق أعضاء الموكب وحاشية الأمير من بغتتهم الأولى، فهموا أن يدافعوا عن أميرهم الذي فجعوا فيه وفي مرحهم على هذه الصورة الغريبة، فاذا كازيمودو ينصب من نفسه حامياً للأسقف، فيصرف بأسنانه و يلوح بقبضتيه في الهواء، فكأنه نمر هائج.

أما الأسقف فعاد الى وقاره السابق، وأشار الى كازيمودو ثم مشى، فأفسح الناس له الطريق، ومن أمامه كازيمودو يكفل له الحماية والرعاية، حتى إذا اخترقا ساحة الاعتصاب، فكر نفر من الرعاع أن يتعقبوهما، فعندئذ وضع كازيمودو نفسه في المؤخرة، وأنشأيتبع الأسقف ماشياً بظهره القهقرى وهو يرمي الناس بنظرة كالجمر، مزمجراً كزمجرة الوحش الضاري فانصرف الناس مهرولين!

مطاردة أزميرالدا

وخطر لجرنجوار وهو في هذا المأزق أن يقتفي أثر الغجرية الحسناء، فقد رآها تنحرف الى شارع كونتليري، ومعها عنزتها الصغيرة فانحرف هو أيضاً في ذلك الشارع وهو يقول لنفسه:

ـ وما المانع؟

فقد عهدنا جرنجوار فيلسوفاً عملياً، وهو بحكم خبرته بشوارع باريس يعلم أنه ليس أوفق للانسان المهموم من أن يتعقب امرأة حسناء، دون أن يعلم الى أين هي ذاهبة..

وكذلك راح يتعقب تلك الفتاة الحسناء التي جعلت تحث الخطى، فتضطر رفيقتها الصغيرة الى القفز وراءها كي تلحق بها، كانت في اسراعها هذه محقة، فقد بدأت الشوارع تقفر من السابلة، وأخذت الحوانيت القليلة المتناثرة تغلق أبوابها. أما هو فقد علل النفس بأنه لن يخرج من هذه المطاردة بصفقة الخاسر، فهو شخصياً لا يعرف لنفسه مأوى ولا مستقراً، فلا وجه إذن للاشفاق من الابتعاد عن ذلك المأوى الذي لا وجود له. ثم حدث نفسه:

ـ إنها على كل حال لا بد أن تكون ذاهبة الى مسكن تقيم فيه في مكان ما، ثم من يدري؟ فليس هناك ما يمنع أن تكون للغجريات أفئدة رقيقة.

وعلى هذا النحو راحت أفكاره تبني القصور الشامخة في الهواء، وهو يتبع الفتاة وعنزتها، والطريق يزداد ظلمة ووحشة.

وعند منعطف من المنعطفات الكبيرة أدرك أن الفتاة شعرت بتعقبه إياها، فقد حولت وجهها اليه مراراً، كمن ضاق صدره بتلك المطاردة الغامضة. بل إنها كفت عن المسير لحظة قبالة مخبز سقطا عليها من فرجته الضوء، فلما وصل الى حيث كانت رمقته بنظرة فاحصة من رأسه الى قدمه، ثم زمت شفتيها على ذلك النحو الذي عهده فيها من قبل حين كانت ترقص، ثم استأنفت طريقها بغير تعليق.

وقد فعلت تلك الايماءة في نفس جرنجوار فعلها، لأنه أدرك أن وراءها شعوراً بالاحتقار والسخرية، فطأطأ رأسه وشرع يباعد بينه وبين الفتاة وهو يتبعها، لشدة خجله من نفسه.

وقد أتاح ذلك لها أن تسبقه الى الانحراف في الشارع التالي، فغابت عن نظره لحظات، ثم سمعها تطلق صرخة ثاقبة، فأسرع اليها، وانعطف في ذلك الشارع، فاذا به غارق في الظلام، لولا ذبالة خابية الضوء كانت تتراقص أمام بعض الدور تحت أيقونة للسيدة العذراء، وبفضل هذا الضوء الخافت استطاع جرنجوار أن يتبين الفتاة الغجرية وهي تناضل للخلاص من رجلين يهمان بكتم أنفاسها كيلا تصيح، في حين راحت العنزة الصغيرة تنطح بقرنيها وتثغو مروعة، فصرخ جرنجوار وهو يتقدم في بسالة:

- النجدة يا رجال البوليس..!

فتحول اليه أحد الرجلين، فاذا بالوجه الذي يطالعه هو وجه كازيمودو المخيف، ولم يركن جرنجوار الى الفرار، ولكنه لم يجسر على التقدم بعد ذلك خطوة واحدة.

وهجم عليه كازيمودو فألقى به على بعد أربع خطوات فنزل فوق حجارة الشارع على أم رأسه، ثم تحول فاختطف الفتاة وغاص بها في الظلام، ووجهها مدلى فوق كتفه في خفة و يسر فكأنها شال رقيق من الحرير. وتبعه زميله، فأخذت العنزة المسكينة تقفز خلف الثلاثة وهي

تطلق ثغاءها كأنها تصرخ صرخات الاستغاثة والتفجع. وصرخت الغجرية:

ـ القتلة! النجدة!

فاذا بصوت يدوي كالرعد من فوق صهوة جواد:

ـ قفوا أيها الأوغاد واطلقوا هذه الفتاة.

ثم ظهر صاحب الصوت من الزقاق المجاور، فاذا به ضابط من ضباط الفرسان، وقد سل في يده سيفه. فانتزع الفتاة الغجرية من قبضة كازيمودو المأخوذ بهذه المفاجأة، ثم وضعها أمامه على السرج.

وأفاق الأحدب من ذهوله، فهجم على الضابط يسترد فريسته. وإذا بالعشرين جندياً الذي كانوا يتبعون قائدهم قد أحاطوا به وفي أيديهم السيوف. فأحدقوا به وقبضوا عليه وقيدوه، فجعل يربد و يرغي و يزبد و يعض، ولو كان الوقت نهاراً لكانت رؤية وجهه وحدها كافية لبث الرعب في قلوب الجنود ولولوا منه فراراً، ولكن ظلام الليل كان قد جرد المسكين من أعظم وأفتك أسلحته، ألا وهو الدمامة التي زادها الغيظ والغضب قبحاً على قبح و بشاعة على بشاعة.

وأما رفيقه الآخر فاختفى في أحشاء الظلام أثناء هذه المعركة.

ونعود الى الفتاة الغجرية، فنراها قد استدارت في مجلسها و وضعت يديها كلتيهما فوق كتفي الضابط الشاب، وراحت تتأمل وجهه بضع ثوان، كمن انشرح صدرها لجمال طلعته وكريم نجدته، ثم بدأته الكلام، وقد رخمت من صوتها فوق رخامته:

ـ ما اسمك يا حضرة الضابط؟

فشد الضابط قامته وأجابها باعتداد:

ـ الكابتن فيبوس دي شاتو بير، في خدمتك أيتها الحسناء.

ـ شكرا لك.

وفي حين كان الضابط فيبوس يفتل شاربه في زهو، انفلتت الفتاة كالسهم من فوق صهوة جواده، وانطلقت تعدو في الظلام بسرعة البرق الخاطف، فنظر الى الأحدب في تحسر ثم قال:

ـ أهذا هو الذي بقي لي؟ شدوا وثاقه جيداً، وإن كنت شخصياً أفضل لو أنه هو الذي هرب وبقيت الحسناء.

رحبة الأعاجيب

أفاق جرنجوار من غشيته التي أصيب بها من أثر سقوطه على أم رأسه، وراح يستجمع تلك الصور المختلطة التي طافت بمخيلته، وبذل جهد المستميت في لم شتاتها وتنسيقها، ولكن حال دون ذلك شعور مبهم بالبرودة، فتقلب في مضجعه، وإذا به يكتشف أنه راقد في خندق صغير تجمع فيه ماء الأمطار، فنهض وهو يسب الأحدب و يلعن يوماً رآه فيه.

وجعل وهو سائر يكد ذهنه في حل لغز اختطاف الراقصة الغجرية، ولكن تفكيره لم يهده الى شيء يطمئن اليه.

وازدادت برودة الليل، ولا سيما أن ظهره مبتل، ووجد أن المشي البطيء سيزيد وطأة البرد عليه، فأنشأ يسرع في خطواته، ولما وجد تلك السرعة غير كافية لبث الدفء في جسمه المقرور، أخذ يجري وإن كان لا يدري الى أين تقوده قدماه. ثم تذكر ذلك المقعد الحجري الذي كان قد وعاه في ذاكرته وأعتقد أنه خير مكان يأوي اليه ليلته هذه، وخيل اليه أنه سائر في عكس الاتجاه المفضي اليه، فدار على عقبيه وأنشأ يجري في الاتجاه المضاد من شارع الى حارة، ومن حارة الى زقاق، ولكنه ضل السبيل في ذلك التيه المظلم، ولم يعد يدري أين يجد تلك الخشبة الموعودة المصنوعة من الرخام.

وانعطف أخيراً في زقاق خيل اليه أنه ينتهي الى بصيص من نار مشبوبة، فأسرع نحوها كالملهوف وعندئذ استلفت نظره شيء غريب: فقد كان الشارع لا يبدو خالياً كسائر الشوارع، بل إنه مملوء بالأشباح،

ولكنها أشباح غامضة الشكل، تتحرك كلها في اتجاه واحد نحو تلك النار الموقدة في نهاية الطريق. وتجاسر فاقترب من شبح منها، فأي شيء يخشاه رجل خاوي الوفاض خاوي البطن؟

وما كان أشد عجبه حين وجد ذلك الشبح القصير الذي حسبه كلباً أو جدياً، رجلا كسيحاً يزحف على ركبتيه، وعندما أحس به الشبح رفع يديه نحوه صائحاً بالاسبانية:

ـ صدقة أيها السيد!

فصاح جرنجوار مغيظاً:

ـ فليأخذك الشيطان، وليأخذني معك!

واقترب من شبح آخر، فاذا به بلا رجلين ولا يدين، وقد اتخذ ساقين وذراعين من الخشب فبدا لمن ينظر اليه كأنه سقالة بناء متحركة. وحياه الرجل بذراعه الخشبية رافعاً قبعته الى مستوى ذقن جرنجوار وصاح:

ـ جد علي أيها المولى بثمن رغيف.

وكان هذا المتسول يتكلم اللغة الايطالية في هذه المرة، فقال جرنجوار:

ـ يبدو أنني في برج بابل!

ثم حث الخطى نحو النار استعجالا لما أمله لديها من الدفء، ولكنه وجد الطريق مسدوداً. وكان السد في هذه المرة رجلا أعمى له لحية كثة، يلوح في الفضاء أمامه بعكازة ضخمة، و يسير الى جواره كلب ضخم، وأحس به الأعمى فصاح:

ـ أعطني شيئاً!

وكان هذا المتسول يستجدي بلغة لاتينية فصيحة.

فسرى عن جرنجوار، لأنه وجد متسولا يتكلم لغة العلماء والأدباء، وأحس أنه مطالب بالتلطف معه والاعتذار اليه، فرد عليه باللغة اللاتينية قائلا:

ـ أيها الصديق، لقد بعت في الأسبوع الماضي آخر قمصاني، فمعذرة، ونظرة الى ميسرة.

ثم ترك الأعمى واستأنف طريقه مسرعاً، بيد أن الأعمى لم يتركه يفلت بل أسرع وراءه حتى لحق به، وكذلك فعل الكسيح والمقعد الأكتع، وثلاثتهم يرددون في أعقابه عبارات الاستجداء باللغات الأجنبية الثلاث، في إيقاع واحد منغم، حتى أفلت منه زمام أعصابه وأطلق ساقيه للريح، فجرى وراءه الأعمى والكلب، وكذلك جرى المقعد والأكتع، وللعكازات الثلاثة على الأرض وقع هائل في سكون الليل.

وكلما أمعن في الجري ازداد الجيش الذي يطارده عدداً وعدة، ما بين عميان وعرج ومقطوعي الأذرع ونساء عجائز، وعور، ومجذومين، كانوا يخرجون من البيوت التي على الجانبين، ومن الكهوف والأقبية، صائحين بما يشبه العو يل أو الزمجرة، ثم يقفزون وراءه كأنهم ضفادع استثيرت من مستنقع، فمس الوجل قلب جرنجوار.

ووصل أخيراً الى نهاية الشارع، فوجده يفضي الى رحبة واسعة تومض فيها مئات من النيران الصغيرة المشتعلة، فعول جرنجوار على أن يمرق من بينها بأقصى سرعته حتى يتخلص من مطارديه.. وإذا بالكسيح الذي كان يزحف وراءه وقد ألقى عكازيه بعيداً، ثم أسرع يجري وراءه بقدمين ليس في باريس ما هو أقدر منهما على الجري، وما لبث الأعمى أن أدركه أيضاً وراح يحدق في وجهه بأوسع عينين براقتين رآهما في حياته، فقال جرنجوار مذعوراً:

ـ أين أنا؟

فأجابه شخص لم يكن قد فطن الى وجوده من قبل:

ـ أنت في رحبة العجائب!

ـ إنه لاسم على مسمى! فقد رأيت العرج يجرون، والعمى يبصرون، فليت شعري أين المسيح الذي يصنع هذه المعجزات؟

فتلقى جرنجوار جواباً على ذلك السؤال قهقهة بعثت الرعدة في أوصاله، فأجال عينيه فيما حوله على ضوء تلك الأنوار المشتعلة، فألفى نفسه في تلك الرحبة التي لم تطأها من قبله قدم إنسان شريف لا يمت الى عالم باريس السفلي بصلة. فرحبة العجائب هي مركز الدائرة من مدينة اللصوص وقطاع الطريق والنشالين والمتسولين وكل من عضهم الفقر بنابه أو نبذهم المجتمع من حظيرته. فكأن تلك الرحبة هي البحيرة التي ينبع منها في كل يوم نهر الشر والاثم والفاقة والقبح لتنتشر جداوله في شوارع باريس، ثم إذا سجا الليل عادت تلك الجداول والأنهار المسمومة فصبت في تلك البحيرة التي نبعت منها مع شروق الشمس.

وفي هذه المدينة العجيبة تجد شواذ الآفاق من جميع الملل والأجناس، ما بين اسبان وطليان وجرمان، ونصارى ويهود ومسلمين وعبدة أوثان، ورهبان مطرودين من حظيرة الدين، وهاربين من وجه العدالة، وجنود سابقين فارين من الخدمة، ومومسات وقتلة، ومتسولين نهاراً ينقلبون الى لصوص ليلا.

ورحبة العجائب ساحة واسعة غير منتظمة الشكل، وغير مرصوفة، وحول النيران الصغيرة اجتمعت فصائل من هذا الخليط العجيب يتسامرون أو يتشاحنون، فكنت تسمع صراخاً وضحكاً وعويل أطفال وصياح نساء، وكانت حركاتهم في ضوء تلك النيران تنعكس لها ظلال غريبة.

ويبدو أن كل شيء في هذه المدينة الغجيبة كان مشاعاً، فالرجال والنساء والحيوانات، والسن والجنس والصحة والمرض، كانت كلها

كأنها ولا وجود لها لدى الأفراد، وانما هي قسط مشترك بين الجميع، يتخالطون و يمتزجون بغير تفريق.

وقد أتاحت تلك النيران لشاعرنا ببير جرنجوار أن يتبين فيما حول الرحبة بيوتاً قميئة حقيرة، في كل منها كرة صغيرة مستديرة ينبعث منها ضوء ضعيف، فكانت هذه البيوت تبدو في الظلام، وكأنها نساء عجائز قد وقفن صفاً واحداً متشابكة أيديهن.

وفي هذه اللحظة طرق سمع جرنجوار صوت واضح النبرات صادر من بين تلك الأشباح التي طاردته الى هناك:

ــ فلنأخذه الى الملك.

فقال جرنجوار مذعوراً:

ــ قسماً بالعذراء، لا شك أن ملك هذا المكان تيس كبير!

أما الأشباح التي من حوله فرددت دعوة الداعي في هتاف عال:

ــ الى الملك! الى الملك!

ثم جروه جراً، وكل واحد منهم يجتهد أن يضع يده عليه حتى يدعي لنفسه نصيباً فيه، بد أن مطارديه الثلاثة ــ وهم الأعمى والأعرج والأكتع ــ تشبثوا به واستخلصوه من أيدي الآخرين بعنف وهم يصرخون:

ــ إنه غنيمتنا.

ثم اتجهوا به نحو ملكهم سالكين تلالا من الحجارة وأكواماً من القاذورات والبراميا الفارغة والآنية المحطمة، ثم عبروا به بعد ذلك فناء كبيراً بالوحل، الى أن أدخلوه في قاعة مترامية الأطراف دانية السقف معبقة برائحة كريهة هي مزيج من الخمر الرديء وعفونة الرطوبة ودخان الموقد.

وفي وسط هذه القاعة نار عظيمة في مدفأة ضخمة من الحجر، وقد حلق حولها خليط عجيب جداً من شرار الخلق وحثالة اللصوص، وفيما بينهم مناضد من الخشب المتآكل من فوقها أقداح الجعة والنبيذ.

ومن بين هذه المخلوقات لمح جرنجوار شخصاً واحداً له بطن مستدير ووجه طلق المحيا، وقد أحاط بذراعيه عنق فتاة من العاهرات، أما الضجة التي كانت تملأ المكان فمصدرها تلك الأغاني المبتذلة التي كانت تنطلق بغير نظام من أفواه الحاضرين، كل منهم يغني على هواه الأغنية التي تعجبه باللغة التي تروق له، وقد يحتدم الخصام بين جارين فتتحطم الأقداح على الرؤوس و يثور العراك، وقريباً من النار جثم كلب ضخم، وجلس بضعة أطفال.

وأمام الموقد مباشرة برميل مقلوب جثم فوقه أحد المتسولين، وكان هذا البرميل هو عرش مدينة العجائب، وكان هذا المتسول هو ملكها العتيد.

ودفع الأعمى والأعرج والأكتع في قفا جرنجوار حتى جثا أمام الملك، فساد الصمت في القاعة كلها لحظة، حتى أثر ذلك الصمت المفاجىء في جرنجوار فكتم أنفاسه ولم يجسر على أن يفتح فمه أو يرفع طرفه.

ونظر إليه الملك ملياً من فوق عرشه المرتفع ثم قال:

ـ من هذا الوغد؟

فأجفل جرنجوار، لأنه تذكر أنه سمع ذلك الصوت من قبل، وإن كان في هذه المرة يتكلم بلهجة الوعيد كمن بيده سلطان. بل أنه يذكر أنه سمع ذلك الصوت في هذا الصباح بالذات، لأنه كان أول صوت من الأصوات التي قاطعت روايته، وكان ما قاله عندئذ:

ـ احسان الله يا محسنين!

ورفع جرنجوار بصره، ولم يكذب ظنه، فقد كان هذا الرجل هو كلو بان ترو يفو.

ولم يكن ترو يفو يرتدي شيئاً غير ما كان يرتديه في الصباح من أسمال بالية. وكل ما هناك أن الحرج القديم الغائر الذي كان يشوه ذراعه قد اختفى من موضعه. وكانت في يده قبضة سوط مما كان يستخدمه الشرطة في ذلك الزمن لتفريق الغوغاء. وقد وضع على رأسه طرطورا صوفياً من طراطير الأطفال.

ومهما يكن من شيء، فان جرنجوار شعر بشيء من آماله في الحياة يتجدد وقد عرف كلو بان ترو يفو ملك مدينة العجائب. فتشجع وقال يخاطبه:

ــ يا سيد، يا مولاي، لست أدري بأي لقب أناديك.

ــ يا مولاي، يا صاحب الجلالة، أيها الرفيق. نادني بأي صورة شئت. ولكن وضح لنا ماذا لديك دفاعاً عن نفسك؟

فقال جرنجوار بينه و بين نفسه:

ــ دفاعاً عن نفسي؟ هذا نذير سوء.

ثم أسرع يقول، وقد تلعثم لسانه:

ــ إنني أنا.. الذي.. أعني هذا الصباح.

فقاطعه كلو بان صائحاً:

ــ قسماً بمخالب إبليس! قل اسمك ولا تزد يا وغد. واعلم أنك هنا في حضرة ثلاثة عواهل عظام: أنا كلو بان ترو يفو ملك تونس، وماتياس سبيكالي دوق بوهيميا وهو ذلك الشيخ الأصفر الذي تراه هناك وحول رأسه شملة كبيرة، ثم غليوم روسو امبراطور الجليل، وهو ذلك الرجل البدين الذي لا يلقى بالا إلينا لانشغاله بتلك الصبية التي يحتضنها. ونحن الثلاثة قضاتك، والتهمة الموجهة إليك أنك دخلت أرض المملكة بغير اذن، فانتهكت حرمة مدينتنا، واستوجبت العقاب،

إلا إذا ثبت بدليل قاطع أنك لص أو متسول أو قاتل، فهل أنت من هذه الأصناف الثلاثة؟ تكلم الآن واذكر لنا مؤهلاتك، ان كانت لك مؤهلات.

ـ وا أسفاً.. لست حاصلا على هذا الشرف، فأنا المؤلف الذي..
ـ كفى! أنت مذنب، والعقوبة الاعدام شنقاً. وإذا كنت من المتدينين فها هو حجر مقدس مسروق من قبر القديس بطرس، ولديك أربع دقائق بالضبط تستطيع فيها أن تسكب روحك كلها فوق هذا الحجر.

وانبعث صوت امبراطور الجليل في هذه اللحظة وهو يقبل محظيته:
ـ مرحى! إن كلوبان ترويفو يخطب ببلاغة تزرى بفصاحة البابا
وعندئذ قال جرنجوار في هدوء وحزم لا يدري من أين هبطا عليه:
ـ سادتي الأباطرة والملوك والدوقات، انكم لم تلقوا بالا إلى حقيقة ضخمة، وهي أن اسمى بيير جرنجوار، وأنني الشاعر الذي كانت تمثيليته الأخلاقية تعرض هذا الصباح في القاعة الكبرى بقصر العدل.

فقال كلوبان:
ـ آه، هو أنت إذن أيها الاستاذ؟!. لقد كنت هناك بنفسي. ولكن ما الذي يمنع من شنقك مع هذا؟ ألأنك قتلتنا ضجراً وملا هذا الصباح، لا يصح أن نقتلك شنقاً هذه الليلة؟

ـ ليس هذا هو الموضوع، وانما الموضوع هو: لماذا لا يعتبر الشعراء من فريق التشردين؟ ونظرة إلى تاريخ الأدب في القديم والحديث تطلعنا على صدق ما أقول. فهذا ايزوب كان متشرداً، وهذا هو ميروس كان متسولا، وهذا ميركوريوس كان لصاً.

فقاطعه كلوبان قائلا:
ـ سحقاً لك. لماذا كل هذا الهذيان؟ لماذا لا تموت في هدوء ولا تقيم الدنيا وتقعدها في غير طائل، و بغير مقتض؟

ـ عفوك يا مولاي ملك تونس، فالمسألة مهمة، لأنها تتعلق بالمبدأ، فاسمح لي بدقيقة أخرى، فانه لا يجوز أن تحكموا علي قبل أن تسمعوا دفاعي.

فارتفعت الضجة من حوله، وتقاربت رؤوس ملك تونس ودوق بوهيميا وامبراطور الجليل في مداولة سريعة. وكان امبراطور الجليل قد ثمل بشكل واضح. وبعد ثوان انتهت المداولة، ورفع كلوبان يده وصرخ في الحاضرين جميعاً:

ـ صمتاً.

ثم أشار بيده إشارة خاصة فبرز ثلاثة من الرجال الاشداء فأحاطوا بجرنجوار ثم أمرهم كلوبان قائلا:

ـ ارفعوا هذا المخلوق فوق مرتبته، وعلقوه في الحبل المدلى من السقف.

فلم يشعر إلا وقد أوقفوه فوق مقعد، ونهض كلوبان فوضع الحبل بيده حول عنقه، ثم ربت على ظهره قائلا:

ـ وداعاً أيها الصديق، فقد حانت منيتك ولا نجاة لك.

ثم أشار الى غجري ضخم وأمره أن يتسلق أحد الأعمدة، كي يستوثق من عقدة الحبل في السقف، فتسلق العملاق كأنه قرد، ورأى وجهه يطل عليه من أعلى. ثم أمر كلوبان شخصاً اسمه اندريه الأحمر أن يدفع الكرسي من تحت قدمي جرنجوار متى صفق كلوبان بيديه، وأمر شخصاً ثالثاً اسمه فرانسوا أن يتعلق عندئذ بساقيه، على أن يضغط العملاق الرابض في السقف على كتفيه، بحيث يحدث ذلك كله في وقت واحد، ثم التفت الى جرنجوار وقال:

ـ وهكذا أيها الصديق يتم رحيلك الى العالم الآخر بأتم استعداد ممكن. والآن هل أنت مستعد؟

وهم أن يقول شيئاً، ولكن ريقه جف، فنظر كلوبان الى الجلادين الثلاثة وقال:

ـ هل أنتم مستعدون؟

ثم انحنى ليدس في نار الموقد قطعاً من أغصان الشجر لم تكن النار قد مستها، فزاد عذاب جرنجوار المسكين، ثم رآه يقف و يرفع كفيه على أهبة التصفيق، بيد أنه لم يصفق، وظهرت على وجهه علامات التذكر، وقال فجأة:

ـ بل انتظروا لحظة، فقد نسيت شيئاً من الاجراءات. فمن عادتنا ألا نشنق رجلا إلا إذا عرضناه على النساء، فربما رغبت إحداهن فيه. فاذا لم يجد مشترية شنقناه.

فتنفس جرنجوار الصعداء، وصاح كلوبان في جموع الحاضرين، وقد وقف فوق برميله:؛

ـ أيها النسوان جميعاً، اسمعن وانظرن. هل منكن واحدة لها رغبة في هذا الصعلوك؟ هيا جميعكن، فهذه فرصتكن الأخيرة قبل أن يشنق، رجل بدون مقابل، ذكر بلا ثمن، هل من راغبة؟ أنت يا ميشلين العرجاء، يا بيرارد البخراء، يا كلود البرصاء، هل من مشترية؟

ورشقنه بنظراتهن من بعيد، ولكن لم تبد عليهن الحماسة، ثم سمعهن يقلن:

ـ كلا. اشنقه أحسن، فان ذلك سيدخل السرور على قلوبنا جميعاً.

ثم ظهرت امرأة شابة مربعة الوجه، اقتربت منه ففحصت قميصه و وجدت به من الخروق ما ينافس به الغربال، ثم سألته بازدراء:

ـ أين قبعتك؟

ـ أخذوها مني.

ـ وحذاؤك؟

ـ انتزعوه من قدمي.

ـ وكيسك؟

ـ ليس معي دانق واحد.

ـ اذن دعهم يشنقوك، وكن من الشاكرين.

ثم استدبرته وانصرفت. وأقبلت على أثرها امرأة عجوز سوداء ملحوظة الدمامة حتى في مدينة العجائب هذه، فجعلت تفحصه وتجس لحمه وعظامه، حتى لقد خاف أن يعجبها، ثم غمغمت في اشمئزاز:

ـ إنه أنحف مما يجب.

وأعقبتها امرأة مليحة في مقتبل العمر، فراقت له وهمس يتوسل اليها:

ـ خذيني بربك، انقذيني.

فرمقته بنظرة اشفاق، ثم غضت بصرها، وعبثت أناملها بثوبها ووقفت لحظة بين الاقدام والاحجام، وقلبه يدق دقاً سريعاً وقد تعلقت حياته بشفتيها، ثم قالت أخيراً:

ـ كلا، لا أستطيع، والا ضربني غليوم «خد الجميل».

ثم انصرفت عنه، وعندئذ هز كلوبان ترويفو رأسه أسفاً وقال:

ـ إنك عاثر الجد أيها الرفيق، ولكني سأعطيك فرصة أخرى.

ثم وقف فوق البرميل واتجه مرة أخرى الى النساء وصاح مقلداً دلال المزاد:

ـ عدد واحد رجل، صغير السن، نحيف، مفلس خائب. هل من مشتر؟ يا معاشر النسوان! هل من راغبة؟ واحد، اثنين، مشنقة!

فهجم الجلادون الثلاثة على جرنجوار للتنفيذ، وعندئذ حدث أمر عجيب، فقد ارتفعت من بين الصفوف الغجر صيحة:

ـ أزميرالدا، أزميرالد.

فأجفل جرنجوار، والتفت الى مصدر الصوت، فاذا الجميع يفسحون طريقاً تمر منه طلعة باهرة الجمال.

لقد كانت هي الغجرية الحسناء، ذات الرقص البديع والغناء الساحر.

وفغر جرنجوار فمه مأخوذاً، وقد تجمعت كل ذكريات ذلك النهار في هذه اللحظة، وغمغم كمن يفيق من حلم:

ـ أزميرالدا. هذا اذن هو اسمها.

و يبدو أن هذه المخلوقة الفاتنة كان لها تأثير سحري على حياته اليوم. فقد كان ذكر اسمها هو الذي فض البقية الباقية من المشاهدين عن تتبع روايته. وكان رقصها وغناؤها هو سلوته من فشل ومن جوع في ذلك المساء، وكان تتبعه إياها هو الذي أفضى به الى الاشتباك مع الأحدب كازيمودو فضربه تلك الضربة القو ية التي أفقدته الصواب. وها هي الآن تظهر في اللحظة الحاسمة وقد أوشك أن يودع الحياة، فتنفرج لها الصفوف، و يتضح أن لها سلطاناً حتى في هذا المكان وها هي تقبل نحوه على مهل، ومن ورائها عنزتها البيضاء اللطيفة تهز قرنيها وتتبختر بأظلافها الذهبية وقد تعلقت بها جميع العيون وطفحت وجوههم بدماثة ولين لم يكن يتصورهما في هذه الحثالة من الأشرار.

ورشقته الفتاة بنظرها دون أن تتكلم، ثم سألت كلو بان في اتزان:

ـ هل انتو يتم أن تشنقوا هذا الرجل؟

ـ نعمك يا أختاه، فقد عرضناه على كل الاناث فلم ترغب فيه واحدة منهن، إلا إذا اتخذته أنت زوجاً.

فزمت ازميرالدا شفتيها بتلك الحركة التي عرفها جرنجوار من قبل، فقد رآها تأتي بها حين لمحته وهو يتعقبها، ثم قالت بهدوء:

ـ سآخذه. سأتخذه زوجاً.

فأحس جرنجوار عندئذ أنه كان في حلم مستمر منذ الصباح، وأن ما يراه الآن ليس الا استمرار لذلك الحلم. فقد تغيرت الحال تغيرات مفاجئة لا ارتباط بينها. بل إنه كاد ينكر ما حظي به من العفو، إذ راح الجلادون الثلاثة يفكون عقدة الحبل، ثم أنزلوه عن المقعد العالي معززاً مكرماً، فتهاوى جالساً فوق المقعد. وجاءه دوق بوهيميا بوعاء خزفي، فتناولته ازميرالدا وقدمته الى جرنجوار قائلة:

ـ ألق به على الأرض.

ففعل وتحطم الاناء. وعندئذ وضع دوق بوهيميا يده فوق جبينهما وقال:

ـ أيها الأخ، هذه زوجتك. أيتها الأخت، هذا زوجك، لمدة سنوات أربع!

وكان الاناء قد انكسر على الأرض أربع قطع.

وما هي إلا بضع دقائق حتى الفى شاعرنا نفسه في حجرة صغيرة، قد أحكمت أبوابها ونوافذها، وشاع فيها الدفء، وقد أجلس الى مائدة حافلة بالطعام والشراب، وبالقرب منه فراش وثير، وهو في خلوة تامة مع فتاة حسناء.

لقد بدت له هذه المغامرة غير المرتقبة ضرباً من ضروب السحر، وأوشك أن يرى في نفسه شخصاً من شخصيات الأساطير. فكان يرفع نظره بين الفينة والفينة ويجيل الطرف فيما حوله، كمن لا يصدق حواسه. وكان بين الحين والحين يثبت نظراته في خروق سترته، لأن تلك الخروق كانت الدليل الملموس بين يديه على واقعية مشاهداته.

أما الفتاة فلم يكن يبدو عليها أنها تعيره أي التفات. فهي تروح في الحجرة وتغدو عابثة بهذا الشيء أو ذاك، متحدثة الى عنزتها، ثم استقر

رأيها أخيراً على الجلوس فجلست قريباً من المائدة، فأتاح ذلك لجرنجوار أن يتفحصها بعينيه على مهل، وهي تلك الغادة الساحرة التي لم يكن رآها من قبل الا لمحاً وهي ترقص أو تغني، فقال يحدث نفسه:

ـ هذه اذن أزميرالدا، فهي في الواقع مخلوق سماوي، وراقصة من راقصات الشوارع، فهي إذن شيء ثمين جداً عالي القدر، وسهل جداً ليس له قيمة. وليس أدل على سلطانها السماوي من أنها عصفت بآمالي في الصباح حين قضت على تمثيليتي القضاء الأخير، وها هي الآن تنقذني في آخر لحظة من الموت وتهبني الحياة، وتبدو لي عروساً من عرائس الجنان. فيا لك من شيطان مريد وملك كريم! وانك لامرأة حسناء، شهية. ولا بد أنك أيتها المليحة غارقة في حبي حتى أذنيك، والا لما اتخذتني زوجاً على الصورة التي فعلت. فأنا اذن بطريقة ما زوج هذه الفاتنة.

ونهض من مقعده، عندما عششت في رأسه هذه الفكرة، وفاضت من نظرات عينيه وهو يقترب من الفتاة الشابة في أرشق خطوة، فتراجعت قائلة:

ـ ماذا تريد مني؟

فأجابها جرنجوار في لهجة تقطر صبابة، حتى لقد دهش في أعماق نفسه منها:

ـ ماذا يمكن أن تسأليني هذا السؤال يا معبودتي أزميرالدا؟

فحملقت فيه الغجرية بعينيها الواسعتين وقالت:

ـ لست أدري ماذا تعني.

فاشتدت به حرارة الوجد، وازدادت حماسته، وقال:

ـ ألست رجلك أيتها الحسناء؟

وبغير مزيد من التمهيدات أحاط خاصرتها بذراعيه، فأفلتت من بين يديه كأنها قرموط، وقفزت من أول القاعة الى آخرها تاركة شالها الحريري في يده، ثم انتصبت أمامه وقد شهرت في يدها خنجراً صغيراً، وقدحت عيناها بالشرر، وتوهجت وجنتاها، وانفرجت شفتاها عن أسنانها، فكأنها في هياج وحش كاسر. وفي الوقت نفسه تصدت له العنزة الصغيرة وقد أبدت نواجذها وشهرت في وجهه قرنيها الذهبيين.

وقد تم هذا في أقل من لمح البصر، فاذا بالملكة الرقيقة وقد انقلبت نحلة هائجة توشك أن تلسع عدوها الذي طمع في جني الشهد، فوقف فيلسوفنا مذهولا، ينظر في بلاهة الى العنزة تارة، والى سيدتها تارة أخرى.

ورأت الفتاة جموده، فقالت:

ـ يظهر أنك شخص غلية في الوقاحة!

فابتسم جرنجوار وقال لها:

ـ عفوك يا آنسة، ولكن إذا كان لديك كل هذا المانع، فلماذا ـ ولا مؤاخذة ـ اتخذتني زوجاً؟

ـ وهل كنت تاركة إياهم يشنقونك؟

فألقى هذا الجواب على أوهامه الدونجوانية دشاً بارداً، وقال:

ـ أنت إذن لم يكن لديك أي غرض آخر من الزواج بي، عدا انقاذي من حبل المشنقة؟

ففغرت فمها وعينيها وأجابته:

ـ وأي غرض آخر يمكن أن يكون هناك؟

فعض جرنجوار شفته قهراً وقال لنفسه:

ـ آه، يبدو أنني لست من السطوة الكيوبيدية بحيث ظننت. ولكن

إذا كان الأمر كذلك فقد ضاع ذلك الأناء الفخاري هباء.

وشعر في أعماق نفسه بالألم والتحسر للأناء المكسور هدراً، ثم قال:

ـ فلنعقد هدنة على

ـ فلنعقد هدنة على أساس التسليم من جانبي بلا قيد ولا شرط، وإني أقسم لك أنني لن أقربك إلا باذنك ورضاك.

فزمت الفتاة شفتيها، ثم انفجرت ضاحكة واختفى الخنجر
ـ فلنعقد هدنة على أساس التسليم من جانبي بلا قيد ولا شرط، وإني أقسم لك أنني لن أقربك إلا باذنك ورضاك.

فزمت الفتاة شفتيها، ثم انفجرت ضاحكة واختفى الخنجر من يدها بطريقة غامضة، فلم يدر جرنجوار المسكين أين اختفى، كما لم يدر من أين ظهر.

والواقع أنه لم يصعب عليه هذا التسليم كثيراً، لأن شاعرنا الفاضل لم يكن رجلا شهوانياً، ولم تكن معاشرة النساء أمراً ضرورياً لديه في يوم من الأيام. فكان يسهل عليه ألا يكترث لخلوته في مخدع واحد مع فتاة فتاكة الحسن مثل أزميرالدا، فهز كتفيه وقال مشيراً الى المائدة والأطباق:

ـ هل هناك مانع أيضاً من أن أتعشى؟

ـ كلا.

وأقبلت ضاحكة على المائدة، فصبت له قدحاً من البيرة، فأقبل على الطعام والشراب بشراهة عجيبة، وكان صوت الملعقة الحديدية وهي تحتك بالطبق الفخاري يصل الى أذنيه صليلا حبيباً الى نفسه، وكأنما كل حبه للحياة قد تحول الى جوع.

وكانت الفتاة ترقبه وهي جالسة أمامه في صمت. وكان يبدو عليها أنها مستغرقة في عالم آخر من الخواطر، ولهذا الخاطر كان ابتسامتها



وما كاد جرنجوار يحيط خاصرة أزميرالدا بذراعيه حتى
انتصبت أمامه وقد شهرت فى يدها خنجراً صغيراً

بين الحين والحين، في حين كانت أصابعها الرقيقة تداعب رأس العنزة الذكية التي قبعت بين ركبتي سيدتها.

ولما هدأت ثائرة الجوع، شعر بشيء من الخجل لأن المائدة كانت قد اقفرت تماماً من كل أثر للطعام، اللهم إلا تفاحة واحدة، فقال:

ـ يا آنسة أزميرالدا، إنك لم تأكلي؟

فلم تجبه، فكرر نداءها، فلم تجبه أيضاً، فأيقن أن الفتاة سابحة في عالم لا قدرة لصوته على استردادها منه.

ولحسن الحظ تدخلت العنزة، فأخذت تجذب سيدتها بلطف من طرف كمها، فقالت ازميرالدا لها وهي كمن أفاقت من نومها فجأة:

ـ ماذا تريدين يا جالي؟

فقال جرنجوار، وقد سر لتلك الفرصة التي أتاحت له مجاذبتها الحديث:

ـ إنها جائعة.

فأخذت أزميرالدا تفتت قطعاً من الخبز، وتقدمها الى العنزة في راحة يدها، فتأكلها في خفة ورشاقة.

ولم يسمح لها جرنجوار بالعودة الى شرودها، بل سألها مجازفاً بعدأن امتلأت بطنه هذا السؤال الدقيق:

ـ الا تريدين اذن أن تتخذيني زوجاً؟

فشخصت اليه الفتاة بنظرة ثابتة وقالت:

ـ كلا..

ـ ولا عشيقاً؟

ـ كلا..

ـ ولا صديقاً؟

فنظرت اليه مرة اخرى نظرة ثابتة، وتمهلت قليلا ثم قالت:

ـ ربما..

فتشجع الفيلسوف بهذا الجواب الفلسفي وقال:

ـ وهل تعرفين ما هي الصداقة؟

ـ نعم. أن نكون مثل أخ وأخت، روحين تلتقيان ولكن لاتمتزجان،كما يكون أصبعان في يد واحدة.

ـ والحب؟ أتعرفين ما هو؟

فارتجف صوتها، ولمعت عيناها، وقالت:

ـ الحب؟ آه! ذلك أن يكون الرجل والمرأة اثنين، ولا يكونان مع ذلك الاشيئاً واحداً، يمتزج الرجل والمرأة حتى يكون منهما ملك واحد، وتلك هي السماء، وذلك هو الفردوس، فالملائكة لا تكون الا في السماء.

وكانت الفتاة شديدة الحماسة وهي تنطق بهذه الكلمات، فأضفى ذلك عليها جمالا فريداً أخذ به جرنجوار، ولا سيما حين سكتت فاذا وجهها يضيء بنورانية خارقة، وقد انفرجت شفتاها القرمزيتان انفراجة يسيرة، وخرجت من بين أهدابها السوداء الطويلة أشعة ثاقبة تعبث الخسوع في النفس، فكانت أمام الشاعر الفيلسوف صنماً حياً للمقدسات الثلاثة: الطهارة والامومة والقداسة..

وسكت جرنجوار خاشعاً لحظة ثم سألها:

ـ ماذا ينبغي أن يكون الرجل اذن كي يروق لك؟

ـ ينبغى أن يكون رجلا.

ـ وأي شيء أنا اذن؟

ـ الرجل يلبس فوق رأسه خوذة، و يمسك في يده سيفاً، و يضع في حذائه مهمازاً مذهباً له صليل.

ـ ها ها! الحصان في نظرك اذن هو الذي يخلق الرجل، هل تعشقين احداً؟

ـ أتقصد انني اتمنى ان يكون ذلك الرجل عشيقي؟

ـ نعم.

فاستغرقت في التفكير لحظة، ثم قالت:

ـ سأعرف هذا عما قريب.

ـ ولماذا لا تعرفين ذلك الليلة؟ لماذا لا أكون أنا هذا الرجل؟

فرشقته بنظرة جادة وقالت:

ـ لا يمكنني أن أحب رجلا لا يقدر على حمايتي.

فتضرج وجه جرنجوار خجلا، لانه أحس ان الفتاة تلمح بذلك الى الدفاع الواهي الذي دافعه عنها حين هجم عليها كازيمودو وصاحبه منذ ساعتين، فضرب جبهته بيده وقال:

ـ لهذه المناسبة يا آنسة، كان ينبغي أن أبدأ الكلام بهذا الموضوع، فاغفري لي سهوي السخيف، وخبريني كيف قيض لك أن تنجي من قبضة كازيمودو؟

فأجفلت الفتاة عند سماع هذا الاسم، وأخفت وجهها بين يديها وهي ترتعد قائلة:

ـ يا له من احدب دميم!

ـ انه بشع الخلقة حقا، ولكن كيف أستطعت الخلاص منه؟

فابتسمت أزميرالدا وتنهدت ولاذت بالصمت، فسألها جرانجوار:

ـ أتعلمين لماذا تبعك؟

ـ لست أدري. ولكنك أيضاً تبعتني، فلماذا تبعتني؟

ـ الحقيقة، انني لست أدري لماذا تبعتك.

وساد الصمت لحظة، ثم شرعت تغني بصوت خافت، بيد أنها ما لبثت أن توقفت عن الغناء وتشاغلت بمداعبةجالي، فسألها:

ـ لماذا يسمونك أزميرالدا؟

فمدت يدها واستخرجت من صدرها كيساً صغيراً بيضاوي الشكل معلقاً في رقبتها في عقد الخرز، وكان هذا الكيس مكسواً بالحرير الأخضر، وفي وسطه فص من الزجاج الأخضر هو تقليد رخيص للزمرد، وقالت:

ـ ربما كانت هذه هي السبب، فأزميرالدا بالاسبانية معناها الزمردة.

فهم جرانجوار أن يتناول الكيس الصغير بين أنامله، فتراجعت الفتاة وصاحت:

ـ لا تمسسه، أنه تعو يذة.. ولمسك اياها يفسدها و يضرك.

فأثار ذلك فضول الشاعر وسألها:

ـ من الذي أعطاك اياها؟

فوضعت سبابتها على فمها اشارة الى الصمت، وأخفت الكيس في صدرها، ولكن جرانجوار لن يقنع وعاد الى سؤالها:

ـ هل انت مولودة في فرنسا؟

ـ لا أعلم..

ـ وهل والدك على قيد الحياة؟

فشرعت عندئذ تغني الاغنية القديمة المعروفة:

«طائر من الطيور أمي.
«وأبي طائر آخر.
«أمر على الماء فلا أشرب.
«وأمر على الطعام فلا آكل.
«طائر من الطيور أمي.
«وأبي طائر آخر.

فقال جرنجوار:

ـ وهو كذلك. وكم كان عمرك حين جئت الى فرنسا؟

ــ كنت طفلة صغيرة جداً.

ــ ومتى جئت الى باريس؟

ــ في العام الماضي. في أواخر أغسطس.

ــ وهذا الرجل الذي تدعونه دوق بوهيميا.. أهو زعيم قبيلتك؟

ــ نعم..

ــ لقد كان هو الذي عقد زواجنا.

فزمت شفتيها على طريقتها المعودة وقالت:

ــ لست أعرف حتى مجرد اسمك.

ــ اسمي؟ ان أردت أن تعرفيه. هو بيير جرنجوار.

ــ أعرف اسما أظرف منه.

ــ يا لك من عابثة! ولكن لابأس، فلن تستثيريني بمثل هذا، بل لعلك تحبينني حين تزداد معرفتك بي، وأراك قد بحت لي بتاريخ حياتك، لهذا أرى من واجبي أن أحدثك أنا أيضاً عن نفسي. لقد ذكرت لك أن اسمي بيير جرنجوار، وقد كان أبي مزارعاً وموظفاً سابقاً في المحكمة. ولكن أثناء حصار باريس شنق البرغنديون أبي، وشقوا بطن أمي، وكان ذلك منذ عشرين سنة، فتيتمت ةلي من العمر ست سنوات، ولا املك من حطام الدنيا شيئاً، وليس لقدمي نعل سوى أرض سوارع باريس. ولست أدري على وجه التحقيق كيف قضيت السنوات من السادسة الى السادسة عشرة، ةكل ما أعلمه انني كنت أخطف رغيفاً من هذا المخبز،أو ثمرة من هذا الدكان. حتى اذا جن الليل تصديت لرجل من رجال العسس فيقتادني الى السجن حيث أجد كومة من القش أفترشها حتى الصباح، وفي سن السادسة عشرة فكرت جدياً في أن أتخذ لنفسي حرفة أعيش منها، وجربت كل مهنة تخطر بالبال: فاحترفت الجندية، ولكني لم أكن على قسط من الشجاعة كاف، فتركت الجندية وانخرطت في سلك الرهبنة، ولذلك أعرف شيئاً من

اللغة اللاتينية، ولكني لم أفلح في تلك الحياة فطردوني، فاتجهت الى حرفة النجارة، ولكن لم تتوفر لدي القوة العضلية الكافية للنجاح فيها فتركتها لأشتغل بالتعليم، فاتضح أنني أجهل من تلاميذي بالقراءة والكتابة. وأخيراً استقر رأيي على أن أغدو شاعراً، فتلك مهنة لا تستلزم من الانسان مزية معينة. وهي أنسب المهن للأفاقين، ولكنها خير على كل حال من احتراف اللصوصية كما نصحني بعض معارفي، ثم شاء لي حسن الطالع أن ألتقي بالأب كلود فرولو، أسقف كنيسة نوتردام، فعطف علي واهتم بأمري. واليه يرجع الفضل في أنني أصبحت من رجال الأدب، وفقهني في علوم الدين وفي ذخائر الأدب القديم وأصول الكتابة وسير القديسين، فكانت باكورة انتاجي الأدبي تلك المسرحية التي مثلت اليوم واجتمع كل سكان باريس لمشاهدتها في القاعة الكبرى بقصر العدل، وقد ألفت كتاباً فب ستمائة صفحة عن المذنب الهائل الذي ظهر سنة ١٤٦٥ وتسبب في إصابة رجل بالجنون، فها أنت ترين أنني لست مجرداً من المزايا والمؤهلات، فلا تتجسري ولا تندمي كثيراً على ربط حياتك بحياتي، فاني أعرف حيلا كثيرة، وسوف أعلم عنزتك العزيزة جالي كيف تقلد أسقف باريس، وهو ذلك الملعون الذي يملك الطواحين المائية التي ترش المارة فوق قنطرة الطواحين بالماء. ثم إن روايتي ستأتيني بمبلغ طيب من المال، إذا قر رأي ناظر القصر على الدفع، وبالاجمال ترينني في خدمتك أنا ومؤهلاتي ومواهبي ومعارفي المستفيضة في العلوم والفنون والآداب. وأنا على أتم الاستعداد للحياة معك يا آنسة على الوجه الذي يروق لك، أعني في طهر وعفاف أو غير ذلك طبعاً، فقان شئت كنا أخاً وأختاً، وإن شئت كنا زوجاً وزوجة.

ثم سكت جرنجوار في انتظار ما أحدثته خطبته الطويلة من أثر، وكانت الفتاة مطأطئة الرأس شاخصة ببصرها الى الأرض، فرفعت رأسها اليه فجأة وسألته:

ـ فيبوس.. ما معنى هذه الكلمة؟

فلم يستطع جرنجوار أن يدرك ماذا يمكن أن تكون الصلة بين خطبته الطويلة عن تاريخ حياته وبين هذه الكلمة. ثم خطر له أنها امتحان لمعلوماته، فقال:

ـ هي كلمة لاتينية معناها الشمس.

ـ الشمس؟

ـ نعم، وهي أيضاً اسم رام مشهور بالقوس والنشاب كان يعد من الآلهة.

ـ اله؟!

وظهر على وجه الفتى اشراق انقلب بعد قليل الى استغراق في التفكير، وفي هذه اللحظة وقع على الأرض سوار من أساورها، فانحنى كي يلتقطه، فلما انتصب لم يجد للفتاة ولا لعنزتها أثراً، وسمع صوت باب يقفل بالمزلاج، وكان هذا الباب هو الفاصل بين مخدعين..

الممسوخ والقسيس الشاب

قبل الوقت الذي بدأت فيه حوادث قصتنا بست عشرة سنة، وذات صباح رائق من يوم الأحد التالي لعيد الفصح المجيد خرج الناس من صلاة القداس في كنيسة نوتردام، ليجدوا على الدرج القائم على يسار المدخل طفلا صغيرا تحت قدمي تمثال القديس كريستوف.

وقد تعود الناس أن يضعوا اللقطاء في ذلك المكان، فيعرضونهم هناك على أنظار المحسنين الاتقياء لعل الشفقة تأخذهم بهم فيتبنونهم. ولا تحتاج اجراءات التبني الى أكثر من أن تحمل السيدة أو الرجل الطف الذي يروق لهما و ينطلقان به. وعلى هذا الاساس كان كثيرات من النساء الآثمات اللاتي يلدن سفاحا يتوصلن الى تبني اطفالهن تحت ستار من الشفقة والعطف بعد أن يكن قد وضعنهم خلسة عن العيون، متعللات بالسفر الى الريف أو ما أشبه.

ولكن اللقيط الذي كان مطروحاً هذا الصباح من ربيع سنة ١٤٦٧ كان فيما يظهر له شأن خاص، فقد تجمع حوله جمع غفير من الخلق فيهم نسبة كبيرة من الجنس اللطيق، اذا صح اطلاق هذا الاسم على حفنة سن العجائز.

وفي مقدمة المحتشدين أربع راهبات، وكن قد حضرن من ديرهن لحضور القداس بتصريح من الرئيسة، وكانت الأخت انييس أول من فطنت الى وجود هذا اللقيط الذي كان يصرخ و يتلوى، فدقت صدرها بيدها وقالت:

ـ ما هذا يا اخواتي؟

فاقتربت الأخريات ونظرن الى وجهه وقلن:

ـ هذا خامس لقيط يعرض هنا منذ بداية السنة.

ـ انه ليس طفلا.

ـ هل انحدرت صناعة انجاب الاطفال الى هذا الحد؟

ـ انه قرد مشوه الخلقة.

ـ قرد؟ ألا تسمعين؟ أهذا صوت قرد؟

ـ معك حق. هذا خوار ثور.

ـ اعتقادي انه حيوان غريب، أو لعله من صلب يهودي ممن غضب الله عليهم، وأعتقد أنه من الثواب اغراقه أو احراقه.

ـ فعلا. فمن ذا الذي يتبنى هذا الممسوخ؟!

ـ ومن تلك التي تجسر أن تلقمه ثديها؟

ـ أهون عليها أن ترضع افعوانا!

ـ ترضع؟ انظري! فمه ملآن بالاسنان.

ـ صحيح. انه تجاوز العام الثاني، ولا شك انه ليس بحاجة الى الرضاعة.

ـ ولكنه بحاجة الى عين أخرى، فهو أعور.

وزاد هياج الطفل الممسوخ، وراح يحرك يديه ورأسه و يجأر بصوت مخيف. وفي أثناء تلك المناقشة النسو ية، كان راهب شاب يصغي الى ما يقال بانتباه. وكان الى شبابه صارم الملامح، حدا النظرات، عليض الجبهة. فلما وصلت المناقشة الى ذلك الحد، شق لنفسه طريقاً بين الواقفين والواقفات، حتى وصل الى الطفل العجيب التكو ين فتمعن فيه طو يلا، ثم بسط فوقه يده وقال:

ـ سأتبناه أنا!

ثم لفه في ردائه الكهنوتي وحمله فدخل به الكنيسة من الباب الأحمر المخصص لرجال الكهنوت المقيمين هناك.

ووجمت الراهبات، وجعنيتتبعنه بأنظارهن حتى واراه الباب، فقالت احداهن عندئذ هامسة في اذن زميلاتها:

ــ ألم أقل لكن مراراً ان هذا القسيس الشاب من السحرة؟

والواقع ان كلود فرول لم يكن من عامة الناس، فهو ينتمي الى أسرة من تلك الأسر القديمة المعروفة في ذلك العهد بما يسمى طبقة صغار النبلاء. وقد ورثت تلك الأسرة وفقا يتألف من واحد وعشرين بيتاً في قلب باريس.

وقد وجهت الأسرة ابنها كلود فرولو منذ نعومة أظفاره للتعليم الديني، فتعلم منذ صغره اللاتينية. وربي على غض الطرف وخفض الصوت، حتى اذا شب عن الطوق ذهب الى الجامعة الكهنوتية طالباً بالقسم الداخلي، فتمت بذلك تربيته المتزمتة، ونشأ جاداً صارماً دؤوباً على الدرس سريع الحفظ كارها للعب.

يضاف الى هذا أنه كان يختلف في أوقات الفراغ الى المدارس المدنية فيتلقى دروساً في العلوم الحديثة، وأفاده ذلك الجد فنجح في امتحان اللاهوت في سن السادسة عشرة وحصل على شهادة في القانون الكنسي، وعلى درجة الدكتوراه من السربون في فلسفة اللاهوت فرسم قسيساً.

ولم يكتف الأب كلود فرولو بما حصل من علم قبل رسامته، فانكب على دراسة العلوم الطبيعية الوطب وسائر الفنون المدنية الأخرى، حتى بات خبيراً في الأعشاب والمراهم وعلاج الحميات وتضميد الجروح، وأتقن الاغريقية والعبرية والسريانية واللاتينية.

وفي نحو ذلك الوقت، أي في سنة ١٤٦٦، اشتدت حرارة الجو اشتداداً فظيعاً في فصل الصيف، فتفشى وباء الطاعون في باريس، وراح ضحيته أكثر من أربعين الف نسمة. وكان أبو القسيس الشاب بين

هؤلاء الضحايا. فخف كلود فرولو الى بيت أبو يه، فاذا به يجدهمما قد ماتا في اليوم السابق، وقد رقد الى جوارهما أخوه الأصغر الذي لا يزال طفلا في مهده، وقد كاد يهلك جوعاً، وفرائصه ترتعد لكثرة ما بلل به ثيابه، فكان هذا الأخ هو كل ما تبعى للأب كلود فرولو من الأهل والأقارب.

وقد أثرت هذه النكبة على حياة كلود أيما أثر، لأنها جعلت منه وهو في سن التاسعة عشرة رب أسرة مسئولا عن أخيه الطفل اليتيم، فأيقظته هذه الصدمة من أحلامه الفكرية والعقلية وردته الى مسئوليات الواقع.

وعطف القسيس على أخيه الأصغر جيهان عطفاً شديداً، وتعلق به تعلقا لا يكون الا من والد نحو ولده. وكان ذلك غريبا حقا لأنه كان قد افترق عن والديه منذ الصغر، ولم يعهد في نفسه التعلق بهما ولا بأي شيء من الأشياء الدنيو ية. فاذا بهذا الطفل الضعيف يخلق منه انساناً آخر عن سابق العهد به كل الاختلاف.

وهكذا اكتشف كلود فرولو أن في العالم أشياء أخرى غير الكتب والسربون وأشعار هوميرس، وعرف بالتجربة أن الحياة بغير حنان و بغير حب جامدة ثقيلة على القلب.

ولكنه بقي على اعتقاده في شيء واحد، ذلك إن حب الأقربين والأهل هو وحده الحب الصحيح، وهو كاف لشغل الحياة.

ولم ينصرف كلود فرولو مع ذلك عن العلم والدرس، بل كان يجمع بين رعاية أخيه ورعاية عقله وثقافته، بعد أن كان همه كله منصرفاً الى المنحى الأخير وحده. فذاعت له شهرة مستفيضة بسبب ذلك في العلوم وفي اللاهوت، حتى غدا وهو في سي العشرين أشهر وأبرز الكهنة الذين يلقون المواعظ في كنيسة نوتردام.

وكان من عادته بعد ختام القداس أن يتوجه الى الجامعة لتسقط آخر أنباء العلوم، وتسامع الناس بذلك، فظن العامة به الاشتغال بالسحر، كما كان الظن بكل من يقر شيئاً عدا كتب الصلوات والادعية. فالطبيب ساحر، والفلكي ساحر، ومن يعرف اليونانية أو العبرية ساحر.

وكان الأب كلود فرولو خارجا ذلك الصباح عقب صلاة القداس فتوجه الى الجامعة كعادته، حين رأى هذا الجمع محدقاً باللقيط، وسمع تلك التعليقات اللاذعة، فتأمل وجه الطفل والفاه أبشع ما رأى في حياته من سحن الأطفال. بيد أن حبه الشديد لأخيه الصغير جيهان جعله يتصور أن ذلك الأخ قد يتعرض لمثل هذا لو أنه مات، فيعرض على الناس على هذه الصورة، و يتعرض لأذاهم وقسوتهم، فاندفع نحو الطفل وحمله ثم انصرف عائداً الى صومعته داخل الكنيسة.

فلما أخرج الطفل من السلة التي كان موضوعاً فد ـا، وجده أقبح مما كان يبدو لأول وهلة، فبين كتفيه حدبة كبيرة، وصدره بارز بروزاً شاذاً، ورأسه الصخم مدسوس بين كتفيه بغير عنق، وعموده الفقري معوج، وساقاه مقوسان ومع هذا فقد كان الطفل زاخراً بالحيو ية، قوي البنية. فزاد عطف كلود عليه لدمامته المفرطة، وآلى على نفسه أن يربيه كي يكون مؤنساً لأخيه، وشفاعة له. فاذا نشأ أخوه نشأة غير صالحة، كانت تربية هذا المسخ ثواباً.

فهذا التبني إذن كان عملا نبيلا، ونوعاً من استثمار الصالحات استثماراً حسناً.

وقام كلود بعد ذلك بتعميد الأحدب، وأطلق عليه اسم كازيمودو.

قارع النواقيس

أما ونحن في سنة ١٤٨٢، فقد نما كازيمودو حتى أصبح عملاقاً هائل القوة، وقد مضت عليهعدة سنوات قائماً بوظيفة قارع النواقيس في كنيسة نوتردام، منسوباً بنعمة الله الى كلود فرولو الذي ارتقى أخيراً الى مقام الأسقفية بفضل ولاء أسرته للشريف لو يس دي بومون الذي عين منذ سنة ١٤٧٢ مطراناً لمدينة باريس.

فكازيمودو هو قارع النواقيس في كنيسة باريس الكبرى. وبمرور الزمن توثقت أعمق الصلات بين قارع النواقيس والكنيسة العريقة. فقد درج كازيمودو منعزلا عن العالم انعزالا تاماً، بحكم جهله نسبة وسر مولده، وبحكم دمامته الفطرية، فنشأ وهو لا يرى له ملاذاً إلا حيطان تلك الكنيسة العالية، فهي بالنسبة اليه بمثابة البيضة الت نقف منها الفرخ، ثم بمثابة العش والدوحة، بل هي عنده عالمه بأسره.

فلا عجب اذن أن يتولد نوع عجيب من التعاطف والتفاهم السري بين هذا الأحدب وبين ذلك البناء الشامخ المترامي الأطراف. فكم زحف على ركبتيه يحبو بين تلك الأبهاء والدهاليز وفي ظلال تلك الأبراج والأقبية، وفي منعطفات تلك السراديب، وفوق درج تلك الأجراس الشامخة.

ومع مرور الزمن صار الطفل يلهو بصورة طبيعية متعلقاً بحبال الأجراس. وشيئاً فشيئاً زادت معرفة الأحدب بكل ركن من أركان تلك الكنيسة، حتى صار أشبه بجزء منها. بل أنه يعرف منها أجزاء لم يعرفها أحد سواه من سكانها والمترددين عليها، فكم من مرة تسلق

طوابقها العالية غير مستعين بشيء على الاطلاق سوى نقوشها البارزة التي تمثل القديسين أحياناً وتمثل الشياطين أحياناً أخرى، فكان من يراه في تسلقه ذاك فوق الواجهة الشاهقة يحسبه برصاً كبيراً، والواقع أن الأحدب كان يجمع في جسمه الغريب التكوين مزايا حيوانية تصله النسانيس، وبالغزلان، وبالفيلة، وبالنمور والتماسيح، ولكنه مع هذا حيوان أليف.

ولم تتأقلم بنيته وتتشكل بقالب الكنيسة فقط، بل أنعقله أيضاً قد تشكل بها. فكيف تم ذلك التشكل؟

نحن نعلم أن كازيمودو ولد أعور أحدب أعرج. وقد تجشم الأب كلود فرولو صعوبات ومشقات هائلة حتى علمه النطق والكلام. بيد أن القدر أبى إلا أن يتعقب المسكين في غير هوادة إذ أنه عين قارعاً للأجراس وهو في سن الرابعة عشرة، فكان ذلك سبباً في اصابته بعاهة أخرى أتمت عزلته عن العالم الخارجي، فقد خرقت رنات الأجراس طبلة أذنه فغدا أصم فلم يعد له اتصال بالعالم إلا عن طريق عينه الواحدة.

ولما كان قد ألف من الناس السخرية والاساءة لغير ذنب جناه، فقد تعود أن يجنب نفسه ذلك ما استطاع، بالاضراب عن الكلام قدر الامكان. فلم يكن يخرج عن صمته في الغالب إلا اذا كان في عزلة. وأثر ذلك على كلامه، فصار صوته أجش ناشزاً، كصرير باب علا مفصلاته الصدأ. وكان كذلك يتكلم بصوت مرتفع جداً بسبب صممه.

وأظن أنه لا يصعب علينا الآن أن نتصور جوه العقلي على ضوء ما تقدم. فتفكيره ساذج محدود جداً. وهو ينطوي على سوء ظن شديد بالناس، وكراهية لهم. وهو رد فعل طبيعي لما آنسه فيهم دواماً من الرغبة في الايذاء بغير سبب، شاع عنه أنه شرير غير مأمون الجانب، مع أن ذلك غير صحيح.

وليس غريباً اذن أن نرى كازيمودو محباً للعزلة ، ففي صحبة

الأجراس الناطقة، أو التماثيل الصامتة ما يغنيه عن مصاحبة الآدميين، وقد الف أن يتحدث اليها حين يختلي بها حديثاً مسموعاً، فيبثها ذات نفسه مطمئناً اليها، و يفزع اليها ليخبرها بما يرى وما يحس.

ولكن كان أحب ما يحب في هذه الكنيسة هو أجراسها النحاسية الضخمة، فقد كانت وحدها قادرة على اسماعه بعد صمم. وكان أكبر هذه الأجراس أحبها اليه. وكان يطلق عليه اسم «ماري». وموضع ماري في البرج الجنوبي، الذي لا يشاركها فيه الا شقيقتها جاكلين التي تصغرها قليلا. ومجموع الأجراس التي تحت رعايته خمسة عشر ناقوساً، لا تدق كلها الا في المناسبات الكبرى وأيام الأعياد. فكان في تلك الأيام يقف وقفة العريس في انتظار اللحظة المرتقبة، حين يشير اليه الأسقف قائلا:

ــ انطلق!

فينطلق بقفزاته العرجاء السريعة فوق سلم الكنيسة المتآكل بسرعة تجل عن الوصف، ثم يندفع لاهث الأنفاس الى مخدع ماري، فيلقي عليها أولا نظرة فياضة بالحنان والشغف، ثم يربت على جسمها بيد حانية، كأنه يدلك جواداً عزيزاً، أو كأنه يستغفرها لما سوف يسببه لها من التعب. ثم بعد ذلك ينادي مساعديه أن ينتشروا في الأبراج الأخرى، كي تبدأ بعد ذلك الدقات كلها في وقت واحد. وكان كازيمودو حين يتعلق بحبل ماري يشعر أن كل جزء من جسمه يهتز و يتذبذب معها، فينشرح صدره وتتفتح نفسه ابتهاجاً، كابتهاج العصفور بنور الشمس.

ولئن كان هذا احساس كازيمودو بالبناء العتيق، و بالأجراس والتماثيل، بحيث يألف هذه الأشياء الجامدة و يتعلق بها من دون البشر، الا أن هناك شخصاً واحداً يستثنيه كازيمودو من كراهيته للجنس البشري، و يتعلق به تعلقاً ليس له نظير.

وكان هذا الشخص الوحيد، الذي ربما أحبه أكثر من حبه الكنيسة وأجراسها بما فيها ماري، هو الأب كلود فرولو.

وسبب هذا الحب واضح كل الوضوح، فالأب كلود فرولو هو الذي تبناه ورباه. وعلى ركبتيه كان يدلله، واليه كان يفزع حين يطارده الأطفال أو تطارده الكلاب. والأب كلود فرولو هو الذي دربه على المشي والكلام والقراءة والكتابة. وهو الذي جعل منه قارع نواقيس، وذلك شيء لا يستهان به. لأن الذي منح كازيمودو وصال ماري، فكأنه قد منح روميو يد فاتنته جولييت.

فلا غرو أن يكون شعور كازيمودو بفضل ولي أمره ورب نعمته عميقاً صادقاً ليس له حد. ولم يقلل من ذلك الحب ما كان يبدو على القسيس من جهامة وصرامة، فلم يكن يحدثه الا نزيراً، وفي اقتضاب وبصوت أجش. ولكن ذلك كله لم يمنع كازيمودو من الاخلاص له والتعلق به في عبودية وخضوع ليس لهما حد، بل لعلهما يفوقان ما عرف عن الكلاب من الوفاء والاخلاص.

ومنذ أصيب قارع النواقيس المسكين بآفة الصمم، نشأت بينه وبين الأب كلود فرولو لغه من الاشارات لا يعرفها أحد سواهما، فأصبح الأسقف هو الشخص الوحيد الذي يستطيع التفاهم مع الأحدب.

وكان نفوذ الأسقف على كازيمودو لا حد له. فأهون إشارة من يده كافية أن تجعل الأحدب يلقي بنفسه غير متردد من أعلى برج في الكنيسة. وكان لا يجسر على رفع بصره الى سيده، فكأنه أمامه عابد بين يدي اله معبود.

ففي عام ١٤٨٢ كان كازيمودو اذن في نحو العشرين من عمره، وكان الأب كلود فرولو في نحو السادسة والثلاثين، وأولهما في عنفوانه لم يبلغ بعد أوج شبابه، أما الآخر فكان قد اكتهل قبل فوات الأوان.

ولم يعد كلود فرولو ذلك العالم الناشىء، أو ذلك المربي، ولا

الفيلسوف الحالم. بل هو الآن رجل شديد الصرامة شديد الهيبة، قوي النفوذ، يأتي في المرتبة بعد مطران باريس مباشرة، وتحت يده عدد كبير من الكهنة، ورصيد كبير من ربع الأوقاف والنذور.

ونبادر فنقرر في هذه المناسبة أن كلود فرولو لم يدخر تعليماً ولا تهذيباً في وسعه نحو أخيه. فقد كان لا يعرف في الحياة مشغلة سوى الدراسة وتربية شقيقه الصغير. ولكن كان أخوه جيهان فرولو لم ينشأ تلك النشأة التي أرادها له أخوه. فقد كان أخوه يريد له أن يشب طالباً مجداً تقياً مطيعاً حسن الحفظ جديراً بالثقة. بيد أنه شب كالنبات البري الذي يعييء البستاني تشذيبه وتوجيهه، فصار مدمناً على السكر والعربدة، كسولا متلافاً زنديقاً محباً للفسق والفجور.

ولم يكن أحب الى جيهان فرولو من تأليف عصابة من الطلبة المساجين، فيسطون فجأة على حانة متطرفة، و يضربون الخمار علقة ساخنة، ثم ينهبون الحانة و يشربون الخمر، وما بقي يريقونه في القبو ثم ينصرفون.

وتقدم السلطات تقريراً طو يلا باللاتينية الى الأسقف، الذي يستر الفضيحة و يعوض الرجل عن خسائره، ولا يجد ما يسليه عن هذه الكارثة التي شوهت أحب المخلوقات اليه، سوى الانصراف الى العلم. و بذلك كان جهل أخيه يتناسب باستمرار تناسباً عكسياً مع تبحره في العلوم.

وكلما زاد انصرافاً الى العلم، اشتد انطواءه على نفسه، وقل اختلاطه بالناس، وعظمت صرامته وجفوة مظهره، واستولت الكآبة عليه. فأثر ذلك في صحته وفي سحنته تأثيراً حاسماً، فسقط شعر رأسه حتى لم يبق إلا النزر اليسير في العارضين، وكان هذا النزر قد اشتعل شيباً.

وأكبر الظن أن العلوم المسموح بها في عصره لم تكن كافية لاشباع نهمه المحموم الى العلم، ذلك النهم الذي لم يكن مصدره الرغبة في

المعرفة بقدر ما كان باعثه الابتعاد عن الدنيا ومغالبة أشجان نفسه وثورة أعصابه. فسمح لنفسه أن يقرأ في الكتب الممنوعة ولا سيما ذلك التراث الفلسفي الضخم الذي خلفه حكماء العرب وبخاصة حكيم الأندلس وفيلسوفها، أعظم شراح أرسطو حتى ذلك الوقت، الا وهو ابن رشد.

ولم يقصر اهتمامه على الفلسفة بفنونها المختلفة ومزالقها، بل تبحر أيضاً في علوم الفلك، وفي الكيمياء وكانت صناعة الكيمياء في ذلك الزمان لا تعني في نظر الناس الا شيئاً واحداً هو اكتشاف حجر الفلاسفة، أو الوسيلة التي تحول بها المعادن الخسيسة ـ كالرصاص وما اليه ـ الى ذهب.

وكان الاسقف قد اتخذ لنفسه جناحاً خاصاً، هو أحد البرجين المطلين على ساحة الاعتصاب، بالقرب من قفص الاجراس. وكانت صومعته هناك محرمة على الجميع، فلا يجسر أحد على دخولها بغير اذنه الصريح وفي وجوده، حتى ولو كان من يريد الدخول هو مطران باريس نفسه.

وبديهي والحالة هذه أنه لم يكن أحد من الناس يعرف شيئاً عن محتويات هذه الحجرة. ولكن كل ما يعلمونه عنها ان وهجاً أحمر أو أصفر غريباً كان يبدو للمتلصصين ليلا من كوة صغيرة خلفية قريبة من السقف. وكان هذا الضوء أشبه ان يكون صادراً عن السنة من اللهب. فكان النسوة من الجيران يتهامسن بأنه يستحضر الجن، وأن هذه النار تندلع من جسومهم من أثر الجحيم الذي يعيشون فيه.

وبديهي أيضاً أن سمعة السحر أخذت تحيط به وتنتشر بين الناس عامتهم وخاصتهم. ولكن لم يجسر أحد على التصريح بذلك علناً، أو على شكايته الى السلطات، لمركزه الديني الخطير.

وعزز تلك الشكوك لهب آخر غير ذلك اللهب الذي كان يتراءى من كوة صومعته، ألا وهو اللهب الذي بدأ ينبعث من عينيه في المدة

الأخيرة، وتهامس الكهان والخدام بتلك النظرات الملتهبة التي كان يضبط متلبساً بها وهو جالس وحده في بعض أرجاء الكنيسة.

ولم تظهر عليه هذه الأعراض الأخيرة الا في الآونة التي بدأت فيها قصتنا هذه. بل إن بعض مرؤوسيه من الكهنة قد سمعوه أثناء صلاة القداس يهمس بعبارات بعيدة كل البعد عن نصوص الصلاة، وقد تقبضت أصابعه حتى أوشكت أظافره أن تغوص في صفحات الكتاب، وفي الوقت نفسه زاد تسدده في رعاية الطقوس وتزمته مع جماعة المؤمنين والمؤمنات الذين يفزعون اليه للاعتراف أو للمشورة.

بل إنه زاد في تزمته على كل ما تعارف عليه الناس، فأصبح يلتزم الابتعاد عن جميع النساء فكأنه في فراره من ذلك الجنس عدو مبين. واذا سمع حفيف ثوب نسائي يقترب منه غطى عينيه بطيلسانه. وخضى في تلك الخطة الى حد أنه رفض السماح لأبنة الملك بدخول الأجنحة الداخلية للكنيسة، وعارض المطران حين سمح لها بتلك الزيارة، ولما لم تسفر معارضته عن نجاح لزم صومعته طول مدة تلك الزيارة وأبى أن يكون في استقبال الأميرة الملكية.

ورفع الى المطران تقريراً في تلك السنة أظهر فيه استياءه لزيادة عدد الغجريات في مدينة باريس في المدة الأخيرة، وطلب من المطران أن يصدر أمراً صريحاً يحرم على الغجريات الرقص تحريماً قاطعاً في ساحة الاعتصاب التي تطل عليها الكنيسة، فلما لم يوافقه المطران، أكب على مراجعة القوانين القديمة كي يجمع النصوص التي تنصب على محاكمة المشعوذات والساحرات، وعلى الظروف التي تجيز اعدامهن حرقاً اذا استعن في شعوذتهن بالمعيز خاصة.

فمن اليسير اذن أن نتصور أن الأسقف كلود فرولو وتابعه الأحدب كانا شخصين مكروهين من الناس ولا سيما سكان الكنيسة وجيرانها، وحين يخرج الأسقف وحده، أو متبوعاً بالأحدب كانت الشفاه تتحرك باللعنات والشتائم.

محاكمة أحدب نوتردام

كان يعيش في سنة ١٤٨٢ رجل جدير بالعجب والحسد، وهو النبيل روبير دسنوتفيل، شيفالييه دي بين، وبارون ديفري وكونت سان اندري..

نعم. هذه كلها القاب هذا السيد المحظوظ، وهي كما ترى كثيرة لامعة. ولكن أكثر منها وألمع هي وظائفه واختصاصاته: ياوران جلالة الملك، ومدير شرطة عاصمة ملكه السعيد منذ سبعة عشر عاماً. ومن اختصاصات هذا الكونت البارون الشيفالييه مدير الشرطة أن يرأس محكمة خاصة بجرائم الاخلال بالأمن. وما من رأس في هذه السنوات وصلت الى السيد المحترم جلاد باريس الا بعد أن مرت بهذا الكونت أولا، فهو المورد الوحيد لآلات التعذيب، وللمشنقة التي تنصب علناً في ميادين باريس.

وفي غداة عيد ٦ يناير، أي غداة انتخاب كازيمودو أميراً للبلهاء، سبق هذا المسكين كي يمثل أمام هذه المحكمة. وكان انعقاد المحكمة يعد حادثاً مثيراً، يسرع الى مشاهدته الممتعة جميع الفضوليين والمجان وأهل الفراغ من الباريسيين.

ففي صباح هذا اليوم بكر هؤلاء الى قاعة المحكمة بدار «الشاتليه» الكبرى. ولعل القراء قد لاحظوا أن القضاة من قديم الأزل يختارون لعقد جلساتهم أياما يكون مزاجهم فيها منحرفاً، لكي يكون ذلك أعون لهم على التدقيق في محاسبة المذنبين والتشدد معهم. وأنسب الأيام لتحقيق هذه المزية الأيام التالية لأيام الاعياد... لأن الخمر تكون قد

أثرت في المعدة والكبد، والطعام الدسم يكون قد أتعب المصارين، والسهر والضجة تكون قد أتلفت الاعصاب، وبذلك تتم كل مقومات «العكننة» اللازمة لاقامة العدل بين الناس.

وقاعة محكمة «الشاتليه» صغيرة نسبياً، منخفضة السقف، وفي صدرها منصة فوقها مقعد كبير له مسندان، لجلوس سعادة مدير الشرطة الكونت دستوتفيل، ولكن هذا المقعد ظل شاغراً في هذا اليوم.

وكيف انعقدت الجلسة اذن بغير وجود القاضي؟

الواقع أننا نظلم عدالة الكونت اذا لم ننوه بمزية فيه، فقد كان لا يعلق سير اجراءات العدالة على حضوره، حتى لا تتعطل أركان الدولة. وهو في هذا النهار مخمور منذ أمس، فلم يستيقظ في وقت مناسب لرئاسة الجلسة، فناب عنه فيها وكلاؤه، وهم أقل منه تأثراً بالخمر.

وعدد هؤلاء الوكلاء ثلاثة: وكيل للشئون الجنائية، وآخر للشئون المدنية، وثالث للأحوال الخاصة. وقد رأس جلسة اليوم وكيله الجنائي الاستاذ «فلوريان».

والاستاذ فلوريان هذا رجل أصم. ولكن اياك أن تظن لحظة واحدة أن هذا الصمم الذي يحول دون سماعه أقوال المتهمين، يمكن أن يحول دون اصداره الحكم الرادع عليهم، ولا يمنع أيضاً هذه الاحكام من أن تكون نهائية ولا نقض لها ولا استئناف!

وللأستاذ فلوريان رأى وجيه في هذا الصدد: وهو أن القاضي الصالح هو الذي لا يسمع. لأن السمع حاسة، أي نافذة تطل على الدنيا. والنظر من النافذة مشغلة للفكر تمنعه من الانحصار في معنى العدالة السامي. فالقاضي الأصم لا تصل اليه ضوضاء الجلسة وضجة الدنيا، فينصرف بحواسه جميعاً الى تحري العدالة وتوزيعها بالقسط بين الناس!

وقد قلنا ان زبائن الفرجة في هذه المحكمة معظمهم من المجان

والمتبطلين. وقد علمنا أن جيهان ـ وهو شقيق الأسقف كلود فرولو ـ في مقدمة هؤلاء المجان. فلا غرو أن يكون في طليعة المبكرين لشهود هذه الجلسة.

ولم يكن جيهان يعلم أن كازيمودو سيحاكم ذلك اليوم، بل كان لا يعلم اطلاقاً أنه معتقل. ولذلك شرع منذ أول الجلسة يعلق على التهم والمتهمين والاحكام تعليقات لاذعة عابرة، الى أن نوديت قضيته، فدخل الجلسة موثقاً بالحبال، وقد وقف الى جواره آسره الهمام الضابط فيبوس دي شاتو بير بملابس التشريفة العسكرية، وراح يفتل شاربه في خيلاء.

وصاح جيهان متعجباً.

ـ أنظروا أيها الرفاق! أليس هذا أميرنا الذي انتخبناه وكرمناه بالأمس؟ يا للأحدب المسكين!

ولم يكن الأحدب ثائراً، بل كان مستكيناً صامتاً كمن لا يبالي، وكل ما هناك أنه يرمق قيوده المتينة بنظرات يقدح منها الشرر ودس القاضي فلوريان رأسه بين الأوراق. وكان يفعل ذلك كلما نودي متهم جديد، كي يعرف أسم المتهم ومكانته الاجتماعية وصناعته ووصف تهمته، وهي معلومات أساسية لا غنى عنها قطعاً للنطق بالحكم. ولا غنى أيضا لحدس ما يمكن أن يجيب به المتهم حين توجه اليه هذه الاسئلة. وبذلك يتمكن القاضي الأصم من التظاهر بالسماع والانصات.

ولما فرغ حضرة القاضي من الاطلاع على الاوراق، رفع رأسه من بين الوثائق، ومال به الى ظهر المقعد حيث استقر هناك، ثم أغمض عينيه شأن من يريد الانصات وحصر الذهن، فتمت له ذلك خاصة أخرى، وهي خاصة العمى!

وفي ذلك الوضع المهيب أنشأ القاضي يسجوب المتهم، دون أن ينظر اليه أو يسمعه.

ـ أسمك؟

ولم يسمع المتهم السؤال، لأنه أصم كا تعلم. ولكن القاضي أيضاً أصم. وهو لا يعلم أن المتهم أصم، فتركه برهة من الوقت قدر أنها كافية للاجابة، ثم قال:

ـ عظيم جداً. وعمرك؟

ولم يسمع كازيمودو طبعاً، ولم يرد بشيء هذه المرة أيضاً، وظن القاضي أنه أجاب، فهز رأسه علامة الفهم، ثم سأله:

ـ وصناعتك؟

ولم يجب كازيمودو، وشعر الناس بغرابة الموقف فتهامسوا، ولكن القاضي خال أن المتهم قد أجاب أيضاً هذه المرة، فقال له:

ـ حسبك. أنت متهم بتعكير صفو الأمن، واختطاف امرأة، ومقاومة رجال جلالة الملك. فما قولك؟ مذنب أو غير مذنب؟

وصمت وهو يقدر أن المتهم يجيب، ثم صاح بعد قليل ـ ولم يكن كازيمودو قد نطق بحرف.

ـ أخرس. كفى ثرثرة! هل سجلت يا حضرة الكاتب أقوال المتهم؟

فضجت القاعة بالضحك، بما فيهم كاتب الجلسة نفسه.

وشعر كازيمودو بالضحك، وهو الذي تعود سخرية الناس، فظن أنهم يضحكون عليه هو، لشيء قاله القاضي، فهز كتفيه غير مكترث.

أما القاضي فحسب أن الناس ضحكوا لأن كازيمودو قال شيئاً لاذعاً أو مهيناً له، ولا سيما لأنه رآه يهز كتفيه كالمستهزيء، فثارت ثائرته وصاح به:

ـ أيها المنكود! أتهين المحكمة؟ أتجرح وقارها؟ الا تدري أنني أمثل سيادة الكونت دستوتفيل، رئيس شرطة باريس أيها الوغد؟

وفي هذه اللحظة كان الكونت قد حضر، ودخل من باب حجرة المداولة الذي خلف المنصة، وسمع عبارة نائبه الاخيرة، فقال.

ـ كفى! سنحكم بأردع عقوبة على المتهم لاهانته وقار المحكمة: يجلد بالسياط علناً في ساحة الاعتصاب، ثم يترك عارياً بعد الجلد ساعة في الشمس..

وسجل كاتب الجلسة حكم القضاء العادل...

والآن نستميح القارىء أن نكلفه مشقة العودة معنا الى ساحة الاعتصاب، تلك الساحة التي غادرناها بالأمس مع جرنجوار وهو يخرج لتعقب خطوات أزميرالدا.

الساعة الآن العاشرة صباحاً. وكل شيء يدل على أن اليوم غداه يوم عيد، فالارض قد تناثرت فوقها الخرق الممزقة والريش وبقع الشمع المنصهر من المشاعل، وفتات المأدبة الشعبية التي مد خوانها في تلك الساحة كما تعلم أمس مساء.

ونتوجه الى القارىء بعد أن يجول بعينيه في آفاق الميدان متأملا تلك الآثار، أن يوجه نظره الى ذلك البناء العتيق الذي يشبه في طرازه العمائر الرومانية، وهو البيت المعروف باسم برج رولان. و يقوم ذلك البرج شجرة باسقة، وبالقرب منها نافذة ضيقة محصنة بقضيبين متعارضين من الحديد.

وهذه النافذة الضيقة هي المنفذ الوحيد للشمس والهواء الى صومعة أو زنزانة صغيرة ليس لها باب، قائمة بمستوى الارض، محفورة حفراً في جدار القصر السميك.

وتسود هذه الزنزانة سحابة من الصمت أشبه بصمت القبور، و يبدو ذلك الصمت على أشده بالقياس الى الضجة العظيمة التي تنبعث من الساحة التي تطل عليها.

وقد اشتهرت هذه الزنزانة في باريس لثلاثة قرون خلت، منذ أمرت مدام رولان ربة ذلك البرج بحفر هذه الصومعة في الجدار، ثم لزمتها الى آخر حياتها حزناً على والدها الذي مات في الحروب الصليبية، وأمرت بأن يسد الباب بالبناء، وأن تظل النافذة بغير مصراع فلا يقيها واق من أحوال الجو إن صيفاً وان شتاء، وان نهاراً وان مساء، فتقوم يومها صائمة ضارعة ثم ترقد ليلها على التراب، ولا تتوسد تحت رأسها شيئاً ولو كان قطعة من حجر، ولا ترتدي من الثياب الا غرارة سوداء. أما سائر القصر، وما كانت تمتلك من ثابت ومنقول فتركته نهباً للسائل والمحروم وابن السبيل، ولا معاش لها الا مما يجود عليها به المارة صدقة لا تسألهم اياها. وبهذا أصبحت تتقبل الاحسان بعد أن كانت توليه. وظلت تنتظر راحة الموت على هذا النحو عشرين سنة ونيفاً، فلما حضرها الموت وهبت هذا الحجر هبة أبدية للمحزونات من نساء باريس.

وقد أقامت مدينة باريس مصلى صغيراً الى جوار النافذة، تحت الشجرة الباسقة حتى إذا وقف الناس للصلاة، تذكروا الصدقة والزكاة، فلم تحرم تلك التي دفنت نفسها في هذه الصومعة حية من شيء يعصمها من الموت جوعاً.

ولا يذكر التاريخ أن تلك الصومعة في برج رولان أقفرت يوماً من أم ثكلى أو أرملة أو عانس، واذا أحب القارىء أن يعرف من هي التي كانت تسكنها في زمن فصتنا هذه، فما عليه الا أن يتبع ثلاث نساء ثرثارات وجهتهن ذلك الجحر بالذات، وأن يصغي لحديثهن:

ـ أنظرا الى هذا الجمع عند طرف القنطرة، لا بد أن هناك ما يتفرجون عليه.

ـ اني أسمع ضرباً على الدف. وأحسب أن هذه الغجرية أزميرالدا تعرض العابها هي وعنزتها الصغيرة، فحثى الخطى يا مايت أنت

وطفلك. فقد شاء لك الحظ أن ترى أطرف ملاهي باريس التي لا نظير لها في قريتك.

ــ غجرية؟ أعوذ بالله منها. أنها قد تسرق طفلي.

وأسرعت القروية تجري نحو الساحة بعيداً عن القنطرة، تاركة وراءها صاحبتيها الباريسيتين اللتين أدركتاها وهما تضحكان منها، ثم قالت احداهما:

ــ الغجرية تسرق طفلك؟ وماذا تصنع به؟

فقالت الباريسية الاخرى:

ــ خرافة. ولكن العجب كل العجب أن الاخت جوديل، ناسكة البرج، تعتقد في الغجر هذه العقيدة نفسها.

ــ معها حق. وهي تستحق أكثر من الكعكة التي صنعتها لها اذن.

ــ أما هي فناسكة مجذوبة لا تدري أحد سر اعتقادها هذا. ولكن ما سر فزعك أنت من الغجر يا مايت؟

ــ انني لا أحب أن يحدث لي مثل ما أصاب المسكينة باكت.

ــ يبدو يا عزيزتي انك ستحدثيننا بقصة شائقة.

ــ إنها شائقة فعلا، وان كانت مؤلمة، فاعلما اذن أن باكت كانت منذ ثمانية عشر عاماً شابة جميلة في مثل سني يومئذ، أي كان عمرها ثمانية عشر عاماً. وقد مات أبوها عنها وهي صغيرة جداً، فكفلتها أمها. وكانت تلك الأم بسيطة التفكير لسوء الحظ فلم تعلم باكت شيئاً سوى أشغال الابرة الساذجة. فشبت الفتاة فقيرة. وكانت الأم والابنة تسكنان على شاطىء النهر في بلدة ريمس، وكانت باكت تعد أجمل فتيات البلدة، ولكنها أيضاً كانت من أفقرهن، وكان شتاء سنة ١٤٦١ قارصاً، فاجتمع البرد والجوع والجمال الباهر على الفتاة فزلت، ثم شوهدت في الكنيسة يوم الاحد وفوق صدرها صليب ذهبي كبير، ففهمنا

جميعاً وتحسرنا لسقوط باكت وهي في الخامسة عشرة من عمرها. وكان أول بختها فيكونت، ثم ضابط في السواري، ثم انحدرت الى حلاق ولي العهد، ثم الى كبير طهاة الملك، الى أن حازها أخيراً غليوم راسين عازف الكمان. وفي سنة ١٤٦١ ـ أي منذ ستة عشر عاماً ـ وضعت باكت طفلة، ففرحت بها كثيراً، لأنها كانت مشتاقة الى طفل يسليها على شقائها. فجمعت حبها كله في هذه الفتاة، ورأت فيها سلوتها الوحيدة بعد أن ذبل حسنها وهي في سن العشرين لحياة الرذيلة التي كانت تحياها، فأصبحت محاسنها لا تدر عليها أكثر مما كانت تدره عليها أبرة التطريز. ونكبت فوق هذا بوفاة أمها. فكأن هذه الطفلة كانت بصيص الرجاء الوحيد في حياتها. بل لقد عاد جمالها الى الاشراق بعد ولادتها، فراجت سوقها، وتحسنت معيشتها ورجعت تصنع ما يفيض عن ثيابها ثياباً جميلة لابنتها، وطرزت لها بيدها حذاءين من الحرير لم يظفر الملك لو يس بمثلهما، فلم تر عين أبدع منهما، ولا يزيد طولهما عن طول ابهامي هذا. ولولا أن تريا قدمي الفتاة خارجتين منهما لما صدقتما أنهما كانتا فيمها فعلا.

ـ وهل كانت الفتاة تستحق هذا كله؟

ـ لقد رأيت أنييس وعمرها لا يزيد على أربعة أشهر، فكانت رائعة الجمال. فعيناها أوسع من فمها، وشعرها في سواد الليل، ولا شك أنها لو عاشت الى سن السادسة عشرة لصارت فتنة. فلا عجب أن تزداد أمها بها تعلقاً يوماً بعد يوم، حتى كادت تصاب بالهوس.

ـ إنها قصة ظريفة، ولكن أي علاقة بينها و بين خوفك من الغجر؟

ـ على رسلك. وفي ذات يوم هبطت بلدة ريمس جماعة من الغجر، كانوا يجولون الريف المجاور مستجدين أو راقصين. وكانت وجوههم بشعة، ولا سيما النساء منهم وإن كان يقال أنهم مروا بروما حيث اعترفوا بآثامهم للبابا فسمح لهم بدخول حظيرة التوبة، بشرط أن يكفروا عن خطاياهم السابقة بالتجوال في أوربا سبع سنوات لا تمس

جنو بهم فيها فراشاً، ولا يغتسلون فيها بماء. ولهذا كانت لهم ريح نتنة وسحن قذرة عبث بها الشيطان، ذلك الشيطان الذي أعطاهم سلطان العرافة والتنجيم وقراءة الكف، فكان الكثيرون والكثيرات يقصدونهم لاستطلاع الغيب. وخطر لبعض الأمهات أن يعرضن راحات ايدي أبنائهن و بناتهن على هؤلاء الغجر، ورحن يتباهين بما قيل لهن، فهذه سيكون ابنها امبراطوراً في أرمينيا وأخرى سيكون ابنها بابا روما وثالثة سيكون ابنها قائداً. فعز على باكت ألا تقرأ العرافات طالع ابنتها، فحملتها إلى مخيم الغجر في أحسن زينتها، فأعجبوا كثيراً بجمالها وبحذائها، وكانت آنييس في ذلك الوقت لم تتم عامها الأول. وتنبأ العراف لها أنها ستكون ملكة، فانصرفت باكت بابنتها والفرح يكاد يذهب بعقلها، وفي اليوم التالي انتهزت فرصة نعاس الفتاة وتسللت خارجة فجذبت الباب وراءها دون أن توصده وأسرعت إلى جارة لها تخبرها بما قاله العراف. ولما عادت وجدت البيت خالياً وليس لآنييس أثر ما عدا فردة واحدة من فردتي الحذاء الجميلتين. فخرجت تصرخ كالمجنونة حتى اجتمع الخلق. وكان أول ما فكر فيه الناس هو الهجوم على مخيم الغجر وتفتيشه، ولكنهم وجدوهم قد رحلوا. فلما رجعت إلى البيت يائسة سمعت فيه بكاء طفل صغير، فكادت نجن من الفرح، فلما اقتربت من الفراش رأت ــ و يا هول ما رأت ــ مخلوقاً فظيعاً مشوهاً له عين واحدة وحدبة بين كتفيه، فذهب عقل المسكينة، و بكى رحمة لها جميع الناس وهم يرونها تقطع شعرها وتهيم على وجهها صائحة: «بنتي! بنتي الصغيرة! اين أنت؟» بل إني لأشعر بالدمع يجول في مقلتي حتى اليوم كلما تذكرت صوتها الباكي ونبرتها المولولة.

ــ الآن لا نعجب لفزعك من الغجر. وما بقية خبرها؟

ــ لقد جنت ورحلت هائمة على وجهها الى باريس ثم فقدنا أثرها.

ــ والطفل؟

ــ أي طفل؟

ـ ذلك المسخ الذي وضعه الغجر في الفراش بدلا من آنييس..

ـ لقد عطف عليه مطران باريس وعمده وعرضه على سلم نوتردام.

وعندئذ كان النساء الثلاث قد وصلن الى ساحة الاعتصاب. فقالت احدى الباريسيتين لصاحبتيها:

ـ قفا هنا وسأنظر أنا من النافذة وحدي حتى لا تروع الأخت جوديل، فهي زاهدة ذهبت العبادة بوعيها وكثيراً ما تثور لأتفه الأسباب. وهي تعرفني الى حد ما، فدعاني أنا أتحدث اليها. وقفا في المصلي الى أن أشير اليكما فتتقدمان للتبرك منها.

وبعد لحظات أشارت الى صاحبتيها فتقدمتا لتبصرا امرأة متغضنة الوجه كأنها هيكل عظمي، شعرها كالشوك وأظافرها طويلة وثيابها أسمال. فحسبتها لاول مرة تمثالا لفرط جمودها. أما نظراتها فشاردة شرود مسلوبات العقل. فسألت القروية همساً:

ـ ماذا تسمون هذه المرأة؟

ـ كل باريس تسميها الأخت جوديل.

ـ وأنا أسميها باكت.

ـ ماذا تعنين؟

ـ انها هي المسكينة التي رويت لكما قصتها.

وفي هذه اللحظة بكى الطفل الذي تحمله مابييت، فاذا بالتمثال البشري القائم في الصومعة وقد دبت فيه الحياة، فمد يده نحو الطفل، وومضت عيناه وهتف:

ـ خذن هذا الطفل بعيداً. اخفينه! فالغجر سيمرون من هنا! ثم سقطت المرأة مغشياً عليها، فارتطمت جبهتها بالارض كأنها قطعة من الصخر، ولكنها لم تشعر بها، الى ان أفاقت بعد لحظات فنهضت وفي

يدها فردة حذاء مطرزة صغيرة جداً راحت تقبلها وتمر بها على وجهها وعينيها. وعندئذ جعلت مابيت تناديها:

ـ باكت! ألا تذكرينني يا باكت؟

فانتصبت الناسكة جوديل وتصلبت أعضاؤها، ودارت بعينيها فيما حولها، ولكن يبدو أنها لم تكن ترى شيئاً، لأنها صاحت بعد قليل وهي تضحك بصوت رهيب:

ـ هي المرأة الغجرية تناديني!

وفي هذه اللحظة مر من أمام النافذة موكب صغير، فمدت الناسكة ذراعيها وأنشأت تصيح بصوت مختلج:

ـ أهذه أنت أيضاً أيتها الغجرية الملعونة؟ أنت التي تنادينني يا سارقة الاطفال.. عليك اللعنة! عليك اللعنة!

فاهت الناسكة جوديل بهذه الكلمات عندما اتصل مشهدان منفصلان، ظلا يتقاربان على افتراق مسرحيتهما الى أن تم امتزاجهما في مشهد واحد، أما أول المشهدين، فهو ذلك الذي رو يناه فيما سبق عن ساكنة برج رولان وزائراتها الثلاث. وأما المشهد الآخر فكان ذلك الجمع المحتشد في ساحة الاعتصاب.

فلماذا احتشد الناس ذلك الاحتشاد؟

لقد كان كافياً لتجمعهم أن يروا أربعة جنود من رجال شرطة باريس واقفين منذ الضحى في تلك الساحة، عند الموضع المعد لتنفيذ الاحكام. فقد كان أهل باريس يعلمون جيداً أن وقوف هؤلاء الشرطة يعني أن مجرماً سوف يشنق، أو على الاقل سيعذب أو يجلد بالسياط علناً، وذلك على كل حال منظر يحب الغوغاء أن يشهدوه، لما فيه من تسلية وحشية توافق غرائزهم.

وبلغ من شدة الزحام أن كان الجنود يضطرون الى تفريقهم كي لا يطغوا على موضع التنفيذ بتزاحمهم. وطال الانتظار، الى أن وصل المتهم المذنب، مربوطاً الى مؤخرة عربة. وما إن رفع الى المنصة وتمكن من في الساحة من رؤيته، حتى تصايح الناس فكان لصوتهم دوي شديد، وتعالت ضحكاتهم وهتافاتهم الى أعنان السماء.. ذلك أنهم عرفوا في هذا المذنب المشدود الوثاق: كازيمودو.

والحق أن تقلبات الاحوال بين أمس واليوم كانت مذهلة له في مفارقاتها: فهو يوشك أن يجلد علنا بالسياط في ذلك المكان نفسه الذي اجتازه موكبه ليلة أمس على ضوء المشاعل محمولا على الاعناق بين الهتاف والتهليل، وقد تقلد طيلساناً أرجوانياً وصليباً مذهباً..أما الآن فانه يرى أمام عينيه آلة التعذيب التي سيقيد اليها حين يجلد، وهي عجلة موازنة للارض، تدور وهو يجلد كي يرى كل من في الميدان وجهه وظهره الممزق بالسياط.

ونهض مأمور الاحكام الموفد من قبل رئيس الشرطة فتلا على الناس الحكم والتهمة بصوت جهوري، فاذا الصيحات تتعالى من جديد... وكيف لا يضحكون من هذا الاحدب الذي يتصدى لمغازلة الحسان؟

أما كازيمودو نفسه فلم يظهر عليه أي أثر للمقاومة أو الغضب، حتى ولو بتقطيب جبينه، والحق أن كل مقاومة ـ بفرض أنه فكر في شيء من ذلك ـ كانت لا طائل تحتها: فالحبال والسلاسل التي ربطوه بها كانت غائرة في لحمه حتى لقد انبثق الدم من مواضعها. كما أن ذهول الدهشة كان يعقل ارادته و يشل تفكيره. ولهذا كان وجهه خلوا من أي انفعال أو تعبير، ما عدا ما يرتسم على وجوه أهل البلاهة والمعتوهين..

وكان جيهان وأصحابه قد حضروا محاكمته في قصر الشاتليه كما ذكرنا، فخرجوا في موكبه وتبعوه الى ساحة الاعتصاب، ووقفوا بين

الناس يتفرجون، وكان جيهان يعلم أن كازيمودو أصم، ولكنه الآن أوشك أن يظن به العمى.

وأرغمه حراسه على الركوع على ركبتيه، ثم كشفوا عن صدره وظهره الى خاصرته، فلم يبد أي مقاومة على الاطلاق، ثم قيدوه بسلاسل وأحزمة جلدية أخرى، فتركهم يصنعون به ذلك كله وكأنه يحدث لشخص سواه. وكل ما هناك أنه كان يتنفس في الحين بعد الحين تنفساً عميقاً، فكأنه عجل مال الجزار بعنقه تمهيداً للذبح.

ولما رآه الناس عارياً أمامهم ضجوا بالضحك، فقد تجردت أمام ناظرهم حدبته كأنها سنام البعير، وصدره البارز، وكتفاه المكسوان بالشعر..

وفي تلك الاثناء كان رجل ربعة القوام، يرتدي كسوة بنية اللون، يصعد منصة التنفيذ بخطى ثابتة متمهلة وما أن رآه الناس حتى سكتوا وكأن رؤوسهم الطير.. ثم أخذوا يتهامسون قائلين:

ـ هذا بيرا تورتيرو، جلاد محكمة الشاتليه الرسمي..

وقد بدأ تورتيرو «العملية»، بأن وضع على زاوية المنصة ساعة كبيرة من الزجاج، مكونة من فنجانين متلاصقين من قعرهما وبينهما خرق دقيق، والفنجان العلوي مملوء برمل أحمر اللون ينساب من الثقب الى الفنجان السفلي. ثم خلع سترته، فظهر في قبضة يده سوط العذاب ذو الالسنة المتعددة، والعقد، وحلقات المعدن.

وبيده اليسرى سمر كم قميصه الأيمن الى الكوع، وعندئذ شق هذا الصمت الرهيب صوت جيهان المهذار:

ـ تعالوا انظروا أيها السيدات والسادة! انهم سيجلدون الان الاستاذ كازيمودو، قارع أجراس أخي الاسقف... ان هذا الاستاذ ذو بنية على الطراز الشرقي: فظهره على شكل قبة ضريح، وساقاه عمودان متعانقان!..

وضحك الناس، ولا سيما الغلمان والفتيات..

وأخيراً دق الجلاد الارض بقدمه، فأخذت العجلة في الدوران، فاضطربت ساقا كازيمودو أمام هذه المفاجأة الجديدة، ثم ظهرت على وجهه علائم الدهشة بجلاء أشد، الأمر الذي راق للناس كثيراً، فصفقوا وضحكوا كثيراً...

وفي اللحظة التي صار كازيمودو أثناء دورانه في وضع مناسب، وقد واجهت حدبته الجلاد، رفع تورتيرو يده بالسوط، فصفرت في الفضاء ألسنته وشعبه صفيراً أشبه بفحيح الافاعي، ثم هبطت بين كتفي الاحدب المسكين.

ووثب كازيمودو، كمن أفاق من حلمه فجأة.. وبدأ المنكود يفهم ما يراد به، وتشنجت عضلات وجهه تشنجاً فظيعاً لشدة الألم، بيد أنه لم ينبس ببنت شفة، الا أنه مال برأسه الضخم ذات اليمين وذات اليسار، والى الخلف، والى قدام، كما يفعل الثور حين تلدغ بطنه نحلة!

وتلت الضربة الاولى ضربة تالية، ثن ثالثة، ثن رابعة وخامسة، وهلم جرا بغير انقطاع، وبدأ الدم يتفصد من مواضع السياط التي كانت آثارها الزرقاء والحمراء تغطي ظهره العريض المشوه، فلما تجدد الجلد، جعلت شعاب السوط تنثر قطرات من ذلك الدم على المشاهدين.

وبدا في ذات لحظة أن المسكين يفكر في المقاومة، فنفرت عروقه وبذل جهد الجبابرة حقاً، ولكن القيود كانت متينة جداً فلم تتمزق. فاستكان، وأغمض عينيه ــ بل الأحرى أن يقول أغمض عينه الواحدة الوحيدة ــ وسقطت رأسه فوق صدره، وبدا كأنه قد فارق الحياة.

ومنذ تلك اللحظة لم تبدر منه حركة تدل على الحياة، مع أن عملية الجلد استمرت على حالها. وأخيراً صعد نائب الاحكام المنصة وأشار بعصاه السوداء الى الساعة، فكف الجلاد يده، ثم وقفت العجلة الدوارة...



ورفع تورتيرو يده بالسوط ، فصفر فى الفضاء ، ثم هبط بين كتفى الأحدب المسكين

وعندئذ، وعندئذ فقط، فتح كازيمودو عينه..

لقد انتهى الجلد.. وآية ذلك أن مساعدي الجلاد راحا يغسلان كتفي المذنب الداميتين، ثم دهناهما بنوع من المراهم، ثم طرحا فوق ظهره قطعة من القماش الاصفر.

أما الجلاد نفسه، فكان يزيل عن سوطه آثار الدماء.. بأن يتركها تقطر على الارض.

ولم تكن عقوبة كازيمودو قد انتهت عند هذا الحد، فقد بقي عليه أن يظل معلقاً معرضاً لانظار الناس في الساحة ساعة أخرى كاملة، فقلب الجلاد الساعة الرملية، كي يصير الفنجان الأسفل هو الأعلى.. حتى اذا فرغ من الرمل، كان ذلك ايذاناً بانتهاء الساعة!

وكانت هذه الساعة هي السلوة الايجابية التي يستمتع بها المتفرجون: فهذا يضحك، وهذا يقذفه بالنكات، وذاك يحصبه بالحصى.

ولئن كان كازيمودو أصم، وأعور، الا أن عينه الواحدة كانت قوية الابصار، فرأى حركات الضحك والشماتة والسخرية. ولم يظهر اكتراثاً أول الأمر، على أن اصابات الحصى جعلته يتقزز و يرمي الناس بنظرات يتطاير منها الشرر.. ولكن الناس لم يرتعدوا، وكانوا بالامس فقط يفرقون رغباً من نظرة أهون من هذه وهو طليق.. أما الآن فهو مشدود الوثاق.

وانطوى كازيمودو على قنوط وألم وغل، ثم استكان، وان كان لا يدري متى ينتهي عذابه، لانه كما علمنا لم يفهم تهمته ولم يسمع الحكم عليه لصممه.

ومن واجبنا أن نذكر في هذا المقام أن الاحدب لم تظهر عليه أي أعراض تدل على الخزي أو الخجل، فهو أبعد عن المجتمع وأدنى الى الفطرة والطبيعة من أن يحس خزياً أو خجلا...

ثم هل يمكن لمن قسا عليه القضاء فجعله يهذه الدمامة المثالية أن يستشعر شيئاً يخجله، وقد حمل وجهه القبيح وعرضه على الناس وواجههم به منذ خرج الى النور!

كل ما كان يشعر به المسكين هو الغضب والغيظ والحقد، فقد تراكمت هذه المشاعر حتى غدت سحابة ظللت وجهه، وناراً اندلعت من مقلته..

ولكن هذه السحابة لم تثبت حيث هي، اذ أقبل في هذه اللحظة قسيس راكب على بغلة، وما إن لمح كازيمودو البغلة والقسيس حتى خفت حدته، بل أشرق وجهه بابتسامة حنون جعلت تزداد كلما اقترب راكب البغلة المتشح بالسواد، وكأنما رأي فيه منقذاً ومخلصاً لا يخيب.

ومن عجب ومن أسف أن القسيس ما إن صار قبالة المنصة حتى غض طرفه متجاهلا، ثم لكز بغلته وانطلق مسرعاً، كأنه خجل أن يتلقى تحية هذا المنكود علناً.

وكان راكب البغلة هو الأب كلود فرولو، فأحدث هذا التصرف أثراً عميقاً في نفس الأحدب، وحلت محل الابتسامة سحابة أحلك من سابقتها.. وظهرت على وجهه المرارة واضحة.

ومضت فترة أخرى، واذا به يتململ في قيوده من جديد، حتى لقد نفرت كل عروقه، وخيف على القيود أن تتمزق، ثم صاح بصوت أجش عريض، كأنه خوار ثور غاضب:

ــ جرعة ماء..

وكان نداؤه أليماً، حرياً أن يحرك القلوب الصلدة، لكن قلوب أهل باريس لم تتحرك، بل استثار ذلك الصوت مرحهم فضحكوا وتمايلوا كالسكارى، والمسكين يرغي و يتناثر الزبد من شدقيه فيغطي ذقنه و يتساقط على الارض.

وتكررت الصيحة الأليمة، فتكرر الضحك. بل أن الشاب الذي كان كازيمودو قد قذف به بعيداً في قاعة قصر العدل بعيد انتخابه أميراً للبلهاء تناول حجراً كبيراً فقذفه به وهو يصيح:

ـ اشرب هذا أيها الوغد الأصم، فهو سداد دينك في ذمتي!

وصاحت عجوز عرجاء وهي ترميه بطوبة:

ـ واشرب هذه أيضاً أيها الساحر.. عسى أن تكف عن القاء أسحارك علينا من قمة أبراج نوتردام أيها الشيطان الزنيم..

وصاح رجل كهل وهو يضرب به بقلة مكسورة:

ـ واشرب من هذه أيضاً أيها الشرير. لقد كان مرورك من أمام زوجتي ذات مرة كافياً لان تلد طفلا له رأسان!

وصاح شيخ من الواقفين عندئذ:

ـ ومروره أمام هرتي مرة واحدة اولدها قطة بست ارجل!

وتكرر صياح كازيمودو للمرة الثالثة:

ـ جرعة ماء!

وعندئذ شقت الصفوف المتراصة فتاة تحمل دفاً صغيراً، وتتبعها عنزة صغيرة مذهبة القرنين والاظلاف، فلما رآها كازيمودو تألقت عينه.. فقد كانت هي الفتاة الغجرية التي حاول أمس اختطافها وبسبب ذلك عوقب هذا العقاب.

ولم يرتب لحظة واحدة في أنها جاءت اليوم كي تنتقم هي أيضاً، فتقذفه بشيء.. ورآها فعلا تصعد درجات المنصة في خفة ورشاقة، فلو أن نظراته النارية تجسمت تجسماً مادياً، لكان ذلك كافياً لاحراقها وتذريتها رماداً قبل أن تصل الى قمة المنصة.

ومن غير أن تنبس بكلمة، اقتربت من فريستها التي تنتظرها عاجزة عن الفرار، ثم حلت من حزامها زمزمية ورفعتها الى شفتيه الجافتين.

وعندئذ ترقرقت في تلك العين الواحدة دمعة كبيرة ثم تدحرجت فوق وجهه الدميم المتغضن.. ولعلها أول دمعة ذرفها في حياته...

ونسي المسكين أن يشرب، فزمت شفتيها ورفعت عنق الاناء الى فمه فعب منه عباً، حتى اذا ارتوى مط شفتيه السوداوين كي يقبل اليد التي أنقذ[illegible] [illegible] أن الفتاة جذبت يدها بسرعة، شأن الطفل الذي يخشى أن يعضه كلب ضخم، فقد تذكرت ما فعله بها في الليلة الماضية.

ورمقها الأحدب المسكين بنظرة حزينة تفيض عتاباً وشكوى.

وتصايح الناس معجبين بذلك الجمال النبيل...

وفي هذه اللحظة بالذات رأت الناسكة جوديل ساكنة برج [illegible] الفتاة، وصاحت فيها صيحتها المنكرة:

ـ أيتها الغجرية.. عليك اللعنة!

لا تؤتمن عنزة على سر

وانقضت بضعة أسابيع. فنحن الآن في أوائل شهر مارس. وقد انحدرت الشمس عن كبد السماء جانحة الى الغروب، فسقطت أشعتها سقوطاً مباشراً على واجهة كنيسة نوتردام، فأبرزت تهاو يل تلك الصور المنحوتة في صخرها، وذهبت نافذة الكنيسة الوسطى، فكأن انعكاس الاشعة الحمراء على زجاجها عين اتقدت بنوازع الغضب والشر..

وفي هذه الساعة التي واجهت الشمس فيها الكنيسة الكبرى ذات البنيان الشامخ، كانت في مقابلها أيضاً في الطرف الآخر من ساحة الاعتصاب شرفة صخرية تبرز فوق واجهة قصر مبني على الطراز القوطي، و يدل مظهره على الغنى. وفي هذه الشرفة جلست بضع فتيات حسناوات يتحادثن و يضحكن بكل ما في قدودهن المياسة من تفتح للحياة وحيو ية شباب. وكانت زينتهن وثيابهن تنبي عن اليسار وعن انتسابهن الى بيوت رفيعة العماد شريفة الحسب والنسب واسعة الثراء.

وكانت واسطة العقد من هذه الباقة من الحسن والرشاقة والاناقة الآنسة فلور دي ليس، ابنة صاحب هذا القصر المنيف. وأما الفتيات فأتراب لها وقريبات جئن لزيارتها. وكانت مجموعتهن تحتل الشرفة والحجرة المفضية اليها، فالجالسات منهن في الحجرة قد افترشن حشيات من المخمل الهولندي مذهبة الاطراف، والجالسات في الشرفة تحتهن مقاعد مستديرة من خشب البلوط مزوقة بصور منحوتة تمثل أفانين الزهر، وفي حجر كل واحدة منهن قطعة كبيرة من النسيج تطرزها، فتيات الأسر في ذلك العهد لا بد لهن من شغل أيديهن بشيء من أشغال الابرة الدقيقة.

وكن جميعاً يتحدثن همساً وبصوت ناعم تقطعه الضحكات اليسيرة، على تلك الصورة التي تعهد في حديث الفتيات كلما كان على مقربة منهن شاب.

فمن هو هذا الشاب؟

ان هذا الشاب هو فيبوس دي ساتوبير الذي يرجع اليه الفضل في تأنق الفتيات في حركاتهن ونعومة صوتهن ومياسة قدودهن، كأن كل واحدة منهن تريد أن تستحوذ دون الاخريات على اعجابه، ولم يكن يبدو عليه أنه يأبه كثيراً لهاتيك الفتيات جميعاً، لانه كان مشغولا معظم الوقت في تلميع مقبض حزامه بجلد قفازه، وهو جالس الى جوار ربة البيت الكونتس والدة فلور دي ليس في الحجرة الداخلية فوق أريكة كبيرة.

وكانت الأم تتحدث اليه بصوت خفيض، وكان الشاب يرد عليها في أدب يبدو عليه التكلف والضجر المكتوم. و يبدو من ابتسامات الكونتس واشاراتها نحو ابنتها فلور دي ليس أثناء حديثها مع الكابتن، أن تلك الاحاديث كانت بمثابة اغراء للفتى على التودد الى الفتاة، فقد كان المفهوم أن زواجاً سيعقد بينهما في المستقبل القريب. وكان الظاهر من سيماء الضابط أن الحب لم يكن مستولياً على قلبه في هذه المرحلة من العلاقة بينهما، فاضطرت الكونتس أن تطرى له محاسن ابنتها.

ــ أنظر يا ابن العم. أنظر اليها. أنظر كيف تتحرك وتخطر.

ــ فعلا.

ثم يعود الى صمته وشروده، فلا تمهله الا قليلا ثم تميل على أذنه.

ــ أرأيت أوضأ من وجه خطيبتك في حياتك؟

ــ أوه. كلا.

ــ أرأيت أكمل من قدها واعتدالها؟

ــ طبعاً كلا.

ـ أرأيت أكمل من يديها وأوقع في النفس؟

ـ أبداً أبداً..

ـ وهذا العنق الذي كأنه كوز من الفضة؟

ـ هو فعلا كذلك.

ـ آه يا ابن العم! كم أحسدك أحياناً على أنك رجل وأنك ستتمتع بكل هذه المحاسن النادرة يوماً أرجو أن يكون قريباً.

ـ أوه.

ـ قل لي أيها الشيطان الصغير، أليست فلور دي ليس حلوة شهية؟ أليست بربك مغرماً بها صباً؟ لا تكذب!

ـ طبعاً بكل تأكيد..

فضربت كتفه من الخلف بطرف كتفها وقالت:

ـ قم اذن وكلمها.

ـ أكلمها..

ـ قل لها شيئاً لطيفاً يجبر خاطرها، فاني أراك قد غدوت في العهد الاخير كثير الخجل والحياء، وما عهدناك كذلك يا ابن العم..

ونبادر نحن من جانبنا فنؤكد للقراء أننا نحن أيضاً من رأى الكونتس في أن حضرة الضابط الهمام لم يكن يوماً ممن اشتهروا بالنسك والزهادة ولا بالخجل والحياء، فقام يحاول جهد امكانه أن يدفع عن نفسه هذه الوصمة. بيد أن حديثه اليها جاء سخيفاً مبتسراً خيب آمال الفتاة التي كانت شديدة التعلق بقريبها الوسيم.

ـ ما هذا الذي بيدك يا ابنة العم الجميلة؟

ـ شيء من التطريز يا ابن العم الجميل.

ـ ولأي غرض تطرزينه؟

ـ ليكون ستراً لهيكل الدير في سان أنطوان.

وساد الصمت بعد ذلك، وكأن جعبة ابن العم الجميل فرغت فلم يبق فيها كلام يجاذبها به أطراف الحديث، فلما طال الصمت سألته:

ـ أهذا كل ماأردت أن تقوله لي؟

وفي هذه اللحظة كانت الكونتس الأم ترمقهما وهي جالسة فوق أريكتها بالداخل، وقد ملأت الفرحة عينيها وتجدد الحنين الى الشباب في قلبها وهمست تحدث نفسها:

ـ انهما لوحة رائعة للصبابة والولع!

أما الصب المولع فكان في هذه اللحظة ينبش أركان رأسه باحثاً عن شيء يقوله حتى لا يخيب رجاء خطيبته بنت العم الجميلة، وأخيراً تنهد وقال:

ـ انه فعلا تطريز رائع.

وشاء الله له أن يخرج من هذا المأزق، اذ صرخت احدى صواحب فلور دي ليس، وكانت تطل من فوق سياج الشرفة الصخري، قائلة:

ـ انظري يا عزيزتي الى هذه الراقصة الحسناء التي تعرض رقصاتها الرائعة في الشارع، وتعزف رلى الدف وسط هؤلاء الرعاع.

ـ انها ولا شك فتاة من هؤلاء الغجر.

ولكن بقيّة الفتيات تصايحن وهن يسرعن الى الشرفة:

ـ بل هيا نتفرج، هيا نشاهدها.

فتبعتهن فلور دي ليس على مضض، لان قلبها كان منقبضاً لما لمسته من فتور خطيبها، فتنفس الخطيب الصعداء، ثم اتجه الى أقصى الحجرة فجلس وحيداً يفكر في هذه الخطبة التي لم تعد تستهو يه مثل ذي قبل.

ولم تدم وحدته طو يلا، فقد استدارت اليه فلور دي ليس فجأة وقالت له:

ـ يا ابن العم الجميل. ألم تحدثنا منذ أسابيع عن فتاة غجرية

تدخلت ذات ليلة فأنقذتها من براثن حفنة من اللصوص كانوا يهمون باختطافها؟

أظن ذلك يا بنت العم الجميلة.

ـ اذن ربما كانت هي هذه الفتاة التي ترقص في الميدان. فتعال وانظر، فربما كانت هي يا ابن العم الجميل فيبوس.

وكان ظاهراً أنها تريد مصالحته والتقرب اليه بأي شكل، فهي علة تعللت بها كي تدنيه منها. فنهض فيبوس دي كاتوبير واتجه الى الشرفة في خطى وئيدة، فوضعت فلور دي ليس يدها على ذراعه وقالت بحنان ورقة:

ـ أنظر. انها ترقص هناك وسط حلقة من الجماهير، أهذه هي غجريتك؟

فنظر فيبوس ملياً ثم قال:

ـ نعم. فاني أعرفها بعنزتها.

وفي هذه اللحظة رفعت احدى الفتيات وجهها الى قمة الكنيسة ثم صاحت:

ـ من هذا الرجل الذي يطل من هناك؟

فرفعت الفتيات جميعاً أبصارهن، فاذا رجل يطل من قمة البرج الشمالي وقد ارتدى ثياب القساوسة، واعتمد ذقنه بين كفيه. وكان جامداً شاخص البصر الى الميدان، فكأنه تمثال من تماثيل كثيرة تزين واجهة الكنيسة، بل ان من يعرف طبائع الحيوان حرى أن يرى في جموده شبيهاً بجمود القط الوحشي وقد اكتشف عشاً للعصافير، فهو يتربص الفرص لينقض عليه. فعرفته فلور دي ليس فقالت:

ـ انه الاسقف كلود فرولو.

ـ وماله يرقب الغجرية هكذا؟

ـ فلتحذر هذه الغجرية، فان هذا الاسقف لا يحب الغجر.

والتفت فلور دي ليس الى خطيبها فجأة وقالت له:

ـ يا ابن العم فيبوس. ما دمت تعرف هذه الغجرية. فنادها، كي نتفرج عليها هنا، ففي ذلك ترو يح عنا.

فصفقت الفتيات جميعاً، ولكن فيبوس قال:

ـ انها لا تستحق كل هذا الاهتمام. وأحسبها قد.نسيتني وأنا من ناحيتي لا أعرف اسمها.. ومع ذلك فما دامت هذه رغبتكن...

ثم أطل من سور الشرفة وراح يناديها قائلا:

ـ يا فتاة! يا بنت.

وكانت الراقصة في هذه اللحظة قد كفت عن الرقص، فرفعت رأسها الى مصدر الصوت فاستقرت عيناها اللامعتان على فيبوس، واحمر وجهها حتى غدت وجنتاها كأنهما جمرتان. و بغير تردد أخذت دفها تحت ذراعها وشقت طريقها بين الناس متجهة الى باب القصر الذي رأت فيبوس يطل من شرفته. وكانت خطوتها بطيئة مضطر بة، ونظرتها زائغة، كأنها عصفور يستدرجه اليه بنظراته أفعوان.

وان هي الا برهة حتى انجاب الستر الذي يغطي مدخل الحجرة وظهرت الغجرية على العتبة مضرجة الوجه مرتبكة لاهثة الانفاس غضيضة الطرف، لا تجسر على التقدم خطوة واحدة.

وكان لظهور الراقصة الصغيرة أثر كبير في نفوس الفتيات، فان جمالها الفطري الفائق كشف جمالهن المصقول المزوق وأشعرهن جميعاً بالعداء المشترك لها، لامتيازها عليهن في الملاحة والفتنة امتيازاً ظاهراً، فلئن تبارين فيما بينهن أيهن أشد فتنة وأحظى بصاحب الكسوة العسكرية، فقد كان ميدان التنافس بينهن متكافئاً، لتكافؤ الاسلحة، أما الآن فلا تكافؤ على الاطلاق، لان جمال الغجرية الصاعق بهر أبصارهن وأزاغها، فأحسسن بالتضاؤل ورحن يرمقنها من قمة الرأس الى أخمص القدم، ثم يتبادلن النظرات، فتم التفاهم فيما بينهن بغير حاجة الى كلام.

أما الفتاة فلم تتكلم، بل ظلت على اغضائها واطراقها تنتظر أن يبدأنها الحديث، ولكن الكابتن فيبوس هو الذي تكلم أولا:

ـ ليت شعري، انها مخلوقة فاتنة! فما تقولين يا بنت العم الجميلة؟

وجاءت هذه العبارة التي لم تنطلق من فم صاحبها بصوت منخفض ضغثا على ابالة، فكأنما ألقي على نار غيرة الفتيات حزمة من الحطب..

وأجابت فلور دي ليس وهي تتصنع الازدراء:

ـ لا بأس!

أما الاخريات فتهامسن فيما بينهن، وعندئذ تدخلت الكونتس قائلة للفتاة الراقصة:

ـ تعالي هنا يا بنية.

فتقدمت الفتاة نحو السيدة النبيلة، وشاركها فيبوس ذلك الاتجاه، ثم قال لها حين صار في مواجهتها تماماً:

ـ لست أدري يا مليحتي هل تنكرينني أم لا؟

فقاطعته الفتاة قائلة وقد أشرق وجهها بأعذب ابتسامة، ورمقته بأرق نظرة:

ـ بل اذكرك..

فقالت فلور دي ليس:

ـ ان لها ذاكرة قو ية فيما يبدو.

فلم يلق فيبوس الى ملاحظتها هذه بالا واستطرد:

ـ انك هربت بسرعة في تلك الليلة. فهل أخفتك؟

فقالت الفتاة بكل بساطة و بلهفة شديدة:

ـ أوه، كلا..

فكان لشكل ثغرها وهي تقول أوه صورة أحست فلور دي ليس كأنها خنجر طعن فؤادها، وصاحت بحدة مشيرة الى حزام الفتاة المذهب:

ـ انك تعرضين نفسك يا فتاة للحبس بسبب حزامك هذا وقالت فتاة أخرى:

ـ ولو أنك لبست أكماماً لما احترق ذراعاك بحرارة الشمس هكذا!

فضحك عندئذ فيبوس وقد رأى تحاملهن على الفتاة وقال:

ـ دعيهن يتكلمن يا بنية. فمما لا شك فيه أن ثوبك خارج عن حدود الحشمة وغريب التنسيق. ولكن أي قيمة لهذا ما دامت الفتاة التي ترتديه لها ظرفك وفتنتك؟..

فصاحت احدى الفتيات، وهي تبتسم لفلور دي ليس ابتسامة تجمع بين السخرية والشماتة:

ـ أرى أن ضباط جلالة الملك من فرقة القناصة قد أصبحوا قنيصة سهلة لعيون الغجر السوداء.

فأجاب فيبوس على ذلك التحدي قائلا:

ـ ولم لا؟..

فرفعت الفتاة طرفها عن الارض، ونظرت الى فيبوس نظرة تفيض زهواً وسروراً، فبدت في هذه اللحظة في جمال ملائكي لا يوصف.

وصرخت الكونتس العجوز عندئذ صرخة ثاقبة:

ـ أعوذ بالعذراء مريم! ما هذا الذي عند قدمي؟ يا للحيوان النجس!

وكان الحيوان النجس هو العنزة البيضاء الصغيرة المذهبة القرنين والاظلاف، فانها افتقدت سيدتها فصعدت تبحث عنها. وفي طريقها اليها اشتبك قرناها في تهاويل الثياب التي كانت تحيط بعجيزة الكونتس العجوز، حسب طراز ذلك العصر.

وأسرعت الغجرية الحسناء فخلصت قرني عنزتها بغير تعليق، ثم جثت على ركبتيها وضغطت خدها بخد العنزة، كأنها تستغفرها عن تركها اياها.

ومالت احدى الفتيات على أذن فلور دي ليس وقد ذكرت شيئاً غاب عنها:

ـ انها هي الفتاة التي تعرض ألعاب الشعوذة مع عنزتها، و يقال انها ساحرة، وان عنزتها تعرض خوارق مذهلة.

ـ أحقاً؟

ـ نعم. ليت العنزة ترينا الآن جانباً من خوارقها هذه كي تسلينا كما سلتنا صاحبتها..

واتجهت الفتاتان النبيلتان بالرجاء الى الغجرية قائلتين:

ـ مري عنزتك أن ترينا احدى معجزاتها.

ـ لست أدري ماذا تقصدان؟

ـ معجزة. عمل من أعمال السحر.

ـ لم أفهم مرادكما.

وفي هذه اللحظة فطنت فلور دي ليس الى حقيبة جلدية صغيرة مطرزة تتدلى من عنق العنزة، فسألت الغجرية باستغراب:

ـ ما هذا؟

فرفعت الغجرية عينيها الواسعتين الى غريمتها وأجابت باتزان:

ـ هذا سري.

فقالت فلور دي ليس في ذات نفسها:

ـ لم وددت لو أطلعت على سرك!

وحينئذ نفذ صبر الكونتس العجوز فصاحت بحدة:

ـ أيتها الغجرية. اذا لم يكن في نيتك أن تعرضي علينا ألعابك أو ألعاب عنزتك، فما وجودك هنا اذن؟

فلم تجب الفتاة، ووجهت خطواتها نحو الباب، ولكنها كانت كلما اقتربت منه ازدادت تباطؤاً، فان قوة خفية كانت تعرقل خطواتها

وتثقل قدميها. وفجأة استدارت وقد تندت عيناها بالدموع نحو فيبوس وتسمرت في مكانها، فصاح الضابط:

ـ لن تخرجي وربي هكذا. فتعالي وارقصي لنا قليلا. ثم هلا خبرتني أيتها المليحة بأي اسم يدعونك؟

فأجابته بدون أن تحول عينيها عن وجهه:

ـ أزميرالدا.

فما سمعت الفتيات هذا الاسم الغريب حتى انفجرن ضاحكات.

وفي هذه الاثناء كانت احدى الفتيات قد نجحت في استدراج العنزة الى ركن من أركان الحجرة، بعد أن أغرتها بقطعة من الكعك جعلت تطعمها اياها، حتى أنست العنزة اليها. فعبثت الفتاة بالحقيبة الجلدية ونثرت محتو ياتها على البساط، فاذا هذه المحتو يات حروف أبجدية متفرقة مصنوعة من الخشب.

وما أن انتثرت هذه الحروف على البساط، حتى خفت العنزة اليها، لتؤدي احدى العابها التي دربت عليها اخيراً، وراحت بظلفها المذهب تنتقي بعض الحروف وترتبها ترتيباً خاصاً، فلم تنفض دقيقة حتى تمت الكلمة التي يبدو أن العنزة تعلمت كيف تكتبها، وعندئذ صفقت الفتاة وصاحت:

ـ يا فلور دي ليس! انظري ماذا فعلت العنزة.

واسرعت فلور دي ليس لتنظر، فارتاعت لما رأت. فقد كانت الحروف التي ارتسمت أمامها هي:

ف. ي. ب. و. س.

ولكنها كتمت عواطفها وسألت الفتاة:

ـ أهي التي فعلت هذا وحدها حقاً؟

ـ نعم!..

ولم يكن هناك مجال للشك، لان تلك الفتاة كانت صغيرة لم تذهب بعد الى مدرسة ولم تتعلم الكتابة، فقالت فلور دي ليس في نفسها:

ــ هذا اذن هو سرك!

وكان بقية الفتيات قد أسرعن ليرين هذا الذي أثار انتباه الفتاة الصغيرة واعجابها، وكذلك أسرعت الغجرية والضباط، فتهامس الفتيات وتغامزن. أما أزميرالدا فاحتقن وجهها ثم اكفهر. وأما فلور دي ليس، فانفجرت باكية، ثم أغمى عليها.

وكان طبيعياً أن تثور الكونتس العجوز فصاحت:

ــ بنتي بنتي!. أخرجي أيتها الساحرة اللعينة!

فجمعت أزميرالدا الحروف بيد مرتعدة، ثم سحبت عنزتها وخرجت من الباب، في الوقت الذي حملوا فيه فلور دي ليس من باب آخر.

وخرجت الفتيات أيضاً ليحطن بفراش صاحبتهن، وفي قلوبهن الاشفاق عليها ممتزجا بالشماتة بها، بعد أن افتضح أمر خطيبها الذي كانت كل واحدة منهن تتمنى لو ظفرت به لنفسها.

وكذلك بقي الكابتن فيبوس في حجرة الاستقبال وحده. فوقف متردداً لحظة طويلة من أي البابين يخرج: أمن المفضى الى الشارع، أم من الباب المفضى الى مخدع فلور دي ليس.

وحسم الأمر أخيراً.. فخرج الى حيث يقتفي أثر الغجرية الحسناء.

حديث ١

إن القسيس الذي فطنت الفتيات إلى وجوده فوق قمة البرج الشمالي لكنيسة نوتردام مطلا على الميدان لم يكن في الواقع إلا صديقنا القديم الاسقف كلود فرولو، وكان بطبيعة الحال يرقب رقص أزميرالدا.

ولاحظ القسيس وهو في صومعته أن أصوات التصفيق تتصاعد من الشارع، ثم سمع دقات الدف فصعد إلى قمة البرج وجعل ينظر، ولم تفطن الفتاة وهي تلعب بالدف وترقص في رشاقة وخفة إلى أن من فوق التماثيل التي ترقبها من واجهة الكنيسة الشاهقة تمثالا بشرياً يكاد يخرق بنظراته الملتهبة دفها الذي فوق رأسها.

وتكاثر الناس حول الراقصة، وكان هناك رجل على رأسه عقال أصفر فاقع اللون يطوف حول الناس بين الحين والحين كي يلزمهم ألا يتجاوزوا النطاق اللازم لحرية حركات الراقصة، ثم يجلس على مقعد خاص على بعد خطوات قليلة من الغجرية، و يتناول رأس العنزة بين ركبتيه.

وكان ظاهراً أن هذا الرجل هو رفيق الغجرية، ولم يكن ليتسنى للأب كلود فرولو أن يتبين ملامح ذلك الرجل من هذا الارتفاع الزاهق. ولكن مما لا شك فيه أنه منذ فطن الأسقف إلى وجود ذلك الرجل، صار انتباهه الشديد موزعاً بين الراقصة و بينه. ثم لم يلبث بدنه أن ارتجف من مفرق شعره إلى قدميه وراح يتساءل:

ــ من هذا الرجل؟ لقد كنت أراها دائماً وحدها...؟

ثم اختفى من فوق قمة البرج، وراح يهبط السلالم الدائرية، فلما مر بباب حجرة النواقيس الذي كان مواربا رأي شيئاً أدهشه: رأى كازيمودو مطلا من كوة صغيرة في تلك الحجرة وقد استغرق في الشخوص إلى شيء في ذلك الميدان، وقد بلغ استغراق كازيمودو في ذلك أنه لم يفطن إلى مرور والده بالتبني، فقال الأب كلود لنفسه:

ـ ما أعجب هذا! أتراه ينظر إلى هذه الفتاة؟

ثم استأنف هبوطه، فان هي إلا بضع دقائق حتى كان الأسقف قد خرج من باب في أسفل البرج إلى ساحة الميدان.

فلما اختلط بالمشاهدين لم يجد للفتاة أثراً، فسأل أقرب الواقفين إليه:

ـ أين الفتاة؟

ـ لست أدري! لقد اختفت، وأظنها ذهبت تعرض رقصاتها في هذا القصر، فقد سمعتهم ينادونها من الشرفة.

وفي هذه اللحظة قام الرجل الذي كان جالساً على الكرسي وعلى رأسه عقال أصفر، فجعل يدور حول حلقة المتفرجين و يداه في خاصرته، ورأسه المحتقن ملقى إلى الوراء، وفوق أسنانه ذلك الكرسي، يمشي به متوازناً غير مرتكز إلا على رجل واحدة، وفوق الكرسي قطة استعارها من إحدى الجارات، وربطها كي لا تهرب، وهي تملأ الجو صياحاً ومواء.

فلما مر الرجل بهذه الصورة الغريبة أمام الأسقف، صاح الأسقف:

ـ أعوذ بالعذراء! ماذا يصنع الاستاذ بيير جرنجوار هنا؟

فكانت هذه الصيحة كافية لفقدان الاستاذ بيير جرنجوار لتوازنه، فوقعت القطة والكرسي فوق رؤوس المشاهدين، وتعالى الصياح واشتد الهرج والمرج، وكان حريا أن يلقى ما يكره من صاحبة القطة ومن المتفرجين، لولا أنه لاذ بالكنيسة، حيث تبعه الأسقف.

وكانت الكنيسة مظلمة خالية، لا تضيئها إلا قناديل خافتة متناثرة، وإلا أشعة ضئيلة تنحدر من النافذة المستديرة التي كانت تتوهج في شعاع الأصيل الباهت كأنها ماسة ضخمة، فلما خطا الكاهن والشاعر بضع خطوات في داخلها، وقف الأسقف فأسند ظهره إلى عمود ورشق جرنجوار بنظرة ثاقبة.

ولم تكن هذه النظرة من ذلك الضرب من النظرات الذي كان يتوقعه الاستاذ جرنجوار بعد أن ضبطه هذا الأسقف الجليل في هذا الزي الغريب وعلى هذه الصورة التي لا تليق بمثله، فقد كانت نظرة الأسقف خالية من كل أثر للسخرية، فهي جادة هادئة فاحصة. ولذلك وقف جرنجوار صامتاً لا يدري ما يقول، إلى أن قال الأسقف:

ــ لعمري أنها لحرفة رائعة!..

ــ وما ذنبي إذا كانت الأيام يا سيدي الأسقف قد أرغمتني على أن استخدم مواهبي الذهنية هذا الاستخدام المزري؟

ــ كل هذا صحيح يا أستاذ جرنجوار، ولكن ما الذي جمع بينك وبين هذه الراقصة الغجرية؟

فقال جرنجوار بكل بساطة:

ــ مجرد أنها زوجتي وأنا زوجها.

فاذا عينا الأسقف تتوهجان، وإذا به يقبض على ذراع جرنجوار بشراسة و يصرخ في وجهه بصوت كزئير الأسد:

ــ وهل بلغت بك الشقوة أيها التعس أن تفعل هذا؟

ــ أفعل ماذا؟

ــ هل لعنك الله فمددت يدك إلى هذه الفتاة؟

فارتعدت فرائص جرنجوار وأجاب:

ــ أقسم لكل ما قسم لي من جنة الفردوس يا سيدنا الأسقف أنني لم أمد يدي إليها، ولم أمسسها، إذا كان هذا ما أثارك.

ـ فما الذي ذكرته الآن عن زواجك منها؟

فأنشأ جرنجوار يحدثه في شاعرية وطلاقة عن كل ما وقع له، وكيف انتهى به ذلك إلى زواجه منها، وكيف أنها ما فتئت تحبسه كل ليلة، وتبيت وحدها مع عنزتها، ثم أردف:

ـ وهكذا سوء طالعي يلازمني، حتى حين أصاب بالزواج، يتبين أن زوجتي قد نذرت التبتل.

فسأله الأسقف في لهفة عظيمة:

ـ التبلت؟.. ماذا تعني؟..

ـ هذا موضوع تفسيره عسير، فقد ذكر لي دوق بوهيميا ـ وهو زعيم قبيلة الغجر ـ أن زوجتي فتاة مفقودة أو مسروقة منذ كانت في العام الأول من عمرها. وهي تحمل حول عنقها تعويذة يقولون أنها ستهتدى بها يوماً إلى والديها الحقيقيين، إذا بقيت عذراء. أما إذا فقدت بكارتها فان هذه التعويذة تفسد ولا تهتدى إلى أهلها أبداً، ولهذا يا سيدي الأسقف أكرهتنا الأيام أنا وزوجتي على العفة.

ـ كذلك تعتقد أنت يا أستاذ جرنجوار أن هذه المخلوقة لم يمسسها رجل؟

ـ طبعاً. فهذه خرافة راسخة في رأسها لا سبيل إلى اقلاعها عنها، وهي لا تعيش إلا بأمل واحد، هو العثور على أهلها.

ثم انطلق يحدث الأسقف، أستاذه السابق، عن حياة الغجر، وعما يرتزقون منه من ألعاب تقوم على خفة اليد، و ينسبها الناس إلى السحر والشياطين. إلى أن قال:

ـ وكذلك الألعاب التي تعرضها العنزة ذات القرون والأظلاف المذهبة لا بأس بها على الاطلاق. فسيدتها تدربها على هذه الألعاب، وأؤكد لك يا سيدي الأسقف أنها عنزة ذكية. فقد تعلمت في أقل من شهرين كيف تتهجى بواسطة حروف خشبية متفرقة كلمة «فيبوس».

ـ فيبوس؟ ولماذا فيبوس؟

فهز جرنجوار كتفيه في سذاجته الشاعرية وقال:

ـ لست أدري. ولعلها كلمة تظن الفتاة أن لها أثراً سحرياً خاصاً، فان معناها الشمس، وأني أستنتج ذلك من مشاهداتي.

ـ أي مشاهدات؟

ـ إنها تكرر هذه الكلمة بصوت خافت كلما ظنت أنها وحدها.

فرشقه الأب كلود بنظرة فاحصة وقال:

ـ أأنت واثق من استنتاجك؟ أهي حقاً مجرد كلمة، أم هي اسم؟

ـ إسم؟ إسم من؟

ـ وكيف أعلم أنا؟

ـ إنني يا سيدي أعتقد أنها اسم الشمس.

ـ هذا اعتقاد لا يقنعني كما يقنعك يا أستاذ جرنجوار.

ـ وما الذي يضني فؤادي؟

ـ أليست زوجتك؟

ـ بلى، ولكن فلتغمغم لكلمة فيبوس ما شاءت. فانني واثق من شيء واحد، هو أن جالي تحبني حباً لا مزيد عليه.

ـ ومن هي جالي؟

ـ العنزة.

ووضع الأسقف يده تحت ذقنه، وشرد ذهنه لحظة، ثم لم يلبث أن التفت إلى جرنجوار فجأة وصاح به:

ـ أتقسم أنك لم تقربها؟

ـ أنا أقربها؟

ـ أتقسم؟

ـ أنا يا سيدي الأسقف أقرب عنزة؟

ـ كلا، بل المرأة...

ـ زوجتي؟ أقسم طبعاً أنني لم أقربها.

ـ وهل تختلي بها كثيراً؟
ـ طبعاً، كثيراً جداً.
ـ وحدكما تماماً، والباب مقفل عليكما؟
ـ وحدنا تماماً يا سيدي، كل ليلة، ساعة كاملة.
ـ اسمع. أقسم لي الآن ببطن أمك أنك لم تقرب هذه المخلوقة حتى ولا بطرف بنانك.
ـ بل وأقسم أيضاً برأسي أبي، ولكن أرجو أن تسمح لي با أستاذي الجليل أن أسألك سؤالا واحداً...
ـ تكلم، اسأل.
ـ ما قيمة المسألة بالنسبة لك؟

فتضرج وجه الأسقف ولزم الصمت لحظة ثم قال:

ـ إني أحبك يا أستاذ جرنجوار، ولا أرضى لك أن يغضب الله عليك واعلم أن أقل اتصال جنسي بهذه الفتاة الغجرية سيجعل روحك في قبضة الشيطان. فالبدن كما تعلم يا أستاذ جرنجوار هو الذي يودي دائماً بالروح إلى الهاو ية. آه يا أستاذ جرنجوار لو تعلم ما تجره الصلة بهذه المرأة من جناية على روح المؤمن.. وهذا كل ما عندي...

فهرش جرنجوار خلف أذنه وقال:

ـ فليسامحني الرب!
ـ ماذا تقول؟ أفصح!
ـ لقد حاولت في الليلة الأولى، ليلة الزفاف كما تعلم، بل كيف تعلم يا سيدي الأسقف وأنت الراهب رجل الله المتبتل؟ لقد حاولت في تلك الليلة ولكنها رفضت.
ـ وهل بلغت بك الجرأة هذا البلغ يا أستاذ جرنجوار؟
ـ نعم، وارتكبت اثماً آخر يا سيدي الأسقف معها.
ـ ماذا؟ أفصح!
ـ في تلك الليلة. وفي كل ليلة. أنظر من ثقب الباب فأراها بثياب النوم راقدة فوق فراشها، وأؤكد لك يا سيدي الأسقف أنها أجمل من



وما كاد يصل إلى حجرة الاجراس حتى تجددت سعادته فاذا به
يقفز من هنا الحبل إلى ذاك ويتأرجح متعلقاً به هنا وهناك

رقدت في الدنيا على فراش. وساقاها يا سيدي الأسقف لو رأيتهما عاريتين..

فصرح الكاهن في وجه الشاعر وهو يدفعه من كتفيه إلى خارج الكنيسة:

ـ إذهب يا صنيعة الشيطان! إذهب قبحك الله!

منذ ذلك الصباح الذي جلد فيه كازيمودو بالسياط، لاحظ المحيطون بكنيسة نوتردام أن قرع النواقيس قد خفت حدته بشكل ظاهر، بعد أن كانت تلك النواقيس لا تكف عن الرنين في كل مناسبة ممكنة وبأقصى شدة. فأصبحت الكنيسة منذ ذلك اليوم وعليها من السكينة والوجوم نقاب ثقيل، فالاعياد وأيام الآحاد في هذين الشهرين لم تعد لها روعتها وبهجتها، فلا صليل يشق عنان السماء معلنا حبور أهل الأرض بأيام الله، إلا في أضيق الحدود التي لا سبيل إلى إغفالها بحكم الطقوس. فظن البعض أن قارع الأجراس العتيد كازيمودو قد خلت منه كنيسته التي حبا في أروقتها علاماً، ودرج بين رحباتها صبياً وتسلق أعمدتها وسلالمها يافعاً وامتزجت رنات الأجراس بلحمه وأعصابه، وجرت مجرى الدماء في عروقه وأوصاله.

ولكن كازيمودو ما زال هناك، فماذا دهاه إذن وماذا غيره م حال إلى حال؟ أهو الخجل والخزى قد استوليا على قلبه؟ أهي ألسنة السوط ما برحت تتراءى أمام عين مخيلته؟ أهو الحزن قد قضى فيه على كل شعور وأطفأ في سريرته ما كان من وجد له وهيام بنواقيسه؟ هل سلا عهد ماري، كبرى نواقيس نوتردام، وسلا معها أخواتها الأربع عشرة؟

لقد حدث في اليوم الخامس والعشرين من مارس أن شعر كازيمودو بلطافة في الهواء جددت في نفسه عاطفته القديمة نحو الأجراس، فراح يصعد سلالم البرج الشمالي، حتى وصل إلى حجرة الأجراس فجعل يرمقها لحظة طويلة ويهز رأسه كمن يتحسر لأن حائلا قد حال بينه وبينها، ولكنه ما أن لمسها وحركها حتى تجددت

سعادته السابقة، واستعاد حبوره وسروره، فانغمس في تلك اللذة التي لم يعرف طول حياته سواها. فاذا به يقفز من هذا الحل إلى ذاك، و يتأرجح متعلقاً به هنا وهناك، صائحاً بأعلى صوته يستحث الأجراس على الاهتزاز والرنين بأقصى قوتها، فلو رآه أحد في تلك اللحظة لحسبه قائد فرقة موسيقية في موجة القيادة وحماستها:

ـ هيل يا جبرييل، جلجلي في الميدان بأقصى قوتك، فاليوم عيد.. هيا يا جيزيل! انفضي عنك كسلك! أتتناومين؟ انهضي!.. مرحى مرحى يا باسكين! أنت الصغرى، ولكنك لست أقل أخوتك نشاطاً وهمة! أما غليوم، فانه لا يعجبني هذا الصباح.

وفيما كان كازيمودو منهمكاً في هذه الحركات، وقد نسي همومه وآلامه وكأنها لم تحدث، وقع نظره عفواً من خلال الكوة المطلة على الميدان فرأى فتاة في ثياب مزركشة تبسط على الأرض بساطاً عتيقاً، لم تلبث أن افترشته عنزة صغيرة بيضاء، ثم بدأ الناس يتجمعون.

وكان هذا المنظر كافياً لانصراف كازيمودو عن أجراسه، فتركها تكف، واستدبرها، مستغرقاً في النظر الى الفتاة الغجرية ورقصاتها، وقد فاضت عينه بالحنان والرقة.

وعلى هذه الصورة بصر به والده بالتبني الاسقف كلود فرولو، وهو هابط من قمة البرج على ما ذكرنا في الفصل السابق.

ذو الرداء الأسود

حدث ذات صباح من أيام شهر مارس هذا، وفي اليوم التاسع والعشرين منه على وجه التحديد، أن صديقنا الطالب الماجن جيهان فرولو فطن إلى أن الجيب الذي يحتوي على كيس نقوده لا يصدر عنه صليل معدني، فأخرج الكيس وهزه بجوار أذنه، ثم قال:

ــ حسرتي عليك يا كيسي! هل بلغت بك الحال هذا الحد من الفراغ؟ أليس فيك فلس واحد أيها الكيس العزيز؟

وخطرت لجيهان عندئذ خاطرة وهو يربط حذاءه. وطرد هذه الخاطرة من ذهنه لأنها لم ترقه، بيد أنها عاودته وألحت عليه، فلم يستطع مقاومتها وأخيراً دق الأرض بقدمه وصاح:

ــ ليكن! وليحدث ما يحدث! سأذهب إلى أخي. وسوف يعطيني موعظة طويلة عريضة، أطول من ليل الشتاء، ولكنه سيعطيني أيضاً جنيها.

وأسرع باعتداء قبعته ثم انطلق كالمجنون.

ودخل على أخيه في صومعته، فابتدره أخوه الأسقف مقطباً:

ــ ما الذي جاء بك؟

ــ المسألة بصراحة أنني أريد نقودا.

فلما سمع الاسقف هذا التصريح الجريء ارتسمت على وجهه السمات التربوية وقال:

ــ أنت تعلم يا سيد جيهان أن الوقف الذي ورثناه لا يغل الا نصف ما كان يغله في السنوات الماضية، وذلك كما تعلم...

ـ أريد نقوداً.
ـ أنت تعلم أن علينا ديوناً.
ـ أنا أعلم فقط أنني أريد نقوداً.
ـ لا نقود. فاخرج الآن لأني أنتظر ضيوفاً.
ـ يا أخي العزيز، أعطني فلساً واحداً أفطر به، ثم انظر إلى حذائي البالي.
ـ سأبعث إليك بطعام وبحذاء جديد. أما النقود.
ـ أرجو منك. أتوسل إليك.

وفي هذه اللحظة ترامت إلى سمعهما أصوات خطوات تصعد السلم المفضى إلى الصومعة، فوضع الأسقف سبابته فوق شفتيه وقال:
ـ صه صه! هذا الأستاذ جاك قد أقبل، اسمع يا جيهان.

ولانت ملامحه عندئذ ثم استطرد:
ـ أدخل تحت هذه المنضدة كي يخفيك غطاؤها، وإياك أن تتنفس، ولا تذكر لأحد ما رأيت أو سمعت هنا.

فأسرع جيهان بالدخول تحت غطاء المنضدة، بيد أن فكرة سعيدة طرأت على باله فأطل برأسه وجذب ثوب أخيه الأسقف قائلا:
ـ يا شقيقي العزيز، جنيهاً ذهبياً أكتم به أنفاسي.
ـ صه! أعدك بذلك.
ـ كلا أيها العزيز، أفضل أن تعطيني إياه وتحتفظ بالوعد لنفسك.

فألقى إليه الأسقف بكيس نقوده غاضباً، فأخذه جيهان وتوارى، ثم انفتح الباب.

وكان الرجل الذي دخل من الباب يرتدي السواد. وأول ما لفت نظر جيهان وهو يتلصص عليه من ثقب في الغطاء أن وجه الرجل كان كئيباً واجماً كثوبه. ولكن ذلك لم ينجح في اخفاء لمحة من لمحات الدماثة التي تعهد في القطط وفي القضاة، فهي دماثة مموهة مصطنعة.

وكان الرجل الى هذا أشيب الشعر، متألق العينين، متغضن الوجه، أبيض الحاجبين يخطو نحو الستين من عمره، له يدان كبيرتان.

وتصافح الرجلان، فدل سلامهما على أن الزائر يجل الأسقف كثيراً، وبعد ذلك قال الأسقف بعد أن رأى صمت الزائر:

ـ ما مدى نجاحك يا أستاذ جاك؟

ـ للأسف يا أستاذي إنني لا زلت أنفخ، ولكن لا أثر للذهب.

فبدت على الأب كلود علامات نفاد الصبر، وقال بجدة:

ـ لست عن هذا أتكلم يا أستاذ جاك شارموني، بل عن القضية المرفوعة ضد الساحر مارك، فهل نجحت في حمله على الاعتراف؟ وهل أجدى التعذيب؟

فأجاب الزائر محتفظاً بابتسامته الوديعة:

ـ كلا للأسف، لم يسعدنا الحظ بذلك. فهذا الرجل كالصخر لا يتزعزع، مع أننا لم ندخر لونا من ألوان العذاب في سبيل الوصول إلى الحقيقة.

ـ ألم تجدوا جديداً في بيته؟

فتحسس الأستاذ جاك جيبه ثم قال:

ـ بلى، بلى، لقد وجدنا هذا الرق، وفيه كلمات لم نفقه معناها.

ـ أعطنيه، أعطنيه.

ثم بسط الرق وألقى عليه نظرة، صاح بعدها:

ـ سحر ولا شك يا أستاذ جاك: «يا أهرمان الوحى الوحى، العجل العجل». هذه اصطلاحات تستخدم لتحضير الشياطين وتسخيرها. أما «هاكس باكس ماكس» فتعويذة شيطانية طبية تستخدم للوقاية من عض الكلاب المسعورة، وبصفتك يا أستاذ جاك النائب العام لدى المحكمة الكنسية، عليك أن تعلم أن هذا الرق جريمة خطيرة.

ـ سنقوم بتعذيبه مرة أخرى. وبهذه المناسبة، متى تريدني أن أهتم بتلك الساحرة الصغيرة التي حدثتني عنها؟

ـ أي ساحرة؟

ـ تلك الغجرية التي تأتي كل يوم وتعرض رقصاتها في ساحة الاعتصاب أمام باب الكنيسة رغم تحريم ذلك عليها مراراً. وقد قلت لي أن لديها عنزة قرونها قرون شيطان، وهي مسكونة بالعفاريت حتى أنها تحسن القراءة والكتابة، وتتقن الحساب كما يتقنه وزير المالية ومحصل الضرائب. وأذكر أنك قلت لي أيضاً أن هذه العنزة كافية وحدها لشنق جميع أهل بوهيميا، وقد أعددت للأمر عدتي، فكتبت صحيفة الاتهام ومرافعة النيابة. وسيلذ لي كثيراً أن أجهز عليها في أقرب فرصة. فمتى تحب أن نشرع في العملية؟

فاكفهر لون الأسقف، ثم غمغم في صوت لا يكاد يسمع:

ـ سأخبرك في الوقت المناسب، فتفرغ الآن للساحر مارك.

ـ سنعذبه أشد العذاب، فاطمئن.

وبدأ الأسقف يتخوف من صدور أي حركة من أخيه جيهان تنم عن وجوده، فذكر زائره الفاضل أنه كان قد أبدى رغبة في دراسة بعض النقوش القديمة التي تعلو باب الكنيسة وبهذا غادر مع زائره الصومعة، الأمر الذي أثلج صدر جيهان، لأنه كان قد بدأ يخشى جدياً أن تنطبع إلى الأبد صورة ذقنه في ركبته، فقام منتصباً وهو يهتف:

ـ هللويا هللويا! كيرياليسون.. يا رب ارحم! هاكس باكس ماكس! ليت هذه الرقية تقيني عضة الكلاب المسعورة، وأولها الأستاذ جاك، النائب العام أمام المحكمة الكنسية، وليتها تقيني هذا الصداع الذي يرن في جمجمتي كنواقيس نوتردام، ولأذهب الآن بكيس أخي الفاضل فأحول كل ما فيه إلى زجاجات تزيح عن الكاهل عبء الهم.

وأسرع يهبط الدرج، فلما وصل إلى الأرض، أبصر أخاه وزائره منهمكين في تفحص بعض نقوش الباب. وفي الوقت نفسه سمع صوتاً

رناناً يقذف بالشتائم واللعنات فهتف:
ـ هذا لا يمكن أن يكون سوى صديقي الكابتن فيبوس.

ثم تعانقا، ولكن اسم فيبوس كان قد طرق أذن الأسقف، الذي كان يشرح الصورة لضيفه الأستاذ جاك شارموني، فقطع الكلام والتفت ليرى شقيقه يعانق ضابطاً طو يل القامة كان خارجاً من باب قصر فلور دي ليس. وكان هذا الضابط هو صاحبنا طبعاً، وكان سبب تلك الشتائم أنه كان ثائراً. وسأله جيهان عن سبب ثورته فقال:
ـ هاتيك النسوة النبيلات لا أستطيع الانطلاق في الكلام على حريتي معهن، خوفاً من أن يزل لساني بالسباب الذي لا أستطيع الكلام من غير أن أرصع به عباراتي. فمتى خرجت من باب بيتهن، جعلت أخرج كل ما احتبس في حلقي من أنواع السباب، وإلا شرقت به.

ـ مرحى مرحى يا أظرف الرفاق! هل تأتى معي فنشرب؟
ـ أوجه اقتراح سمعت به. ولكن العين قصيرة...
ـ و يدي أنا طو يلة.
ـ كلام فارغ.
ـ بل عامر.
ـ أبرز.
ـ ها هو الكيس.

وجعل جيهان يصله و يطوحه أمام ناظري الضابط في وقار، فعانقه فيبوس.
ـ وأين نذهب، يا مهذب؟
ـ كما تشاء، إلى «تفاحة حواء»!
ـ فتلحيى حواء. أحب حواء!

وانطلق الصديقان العربيدان، وغني عن البيان أن الأسقف قد تبعهما على مبعدة، وهما في شغل عنه بالغناء والعربدة.

ومن قرأ أسارير الأسقف كان يراها ناطقة بالوجوم الشديد. فهو يسائل نفسه:

ـ أترى هذا هو فيبوس صاحب ذلك الاسم الملعون الذي جعل يراوده في الأحلام، و يتراءى له في اليقظة والمنام، منذ أفضى إليه جرنجوار بما كان من أمر أزميرالدا والعنزة؟

وكأنما قيض له أن يعرف جواب سؤاله في غير عناء، فانه لم يلبث أن اقترب منهما في زحمة الطريق، فسمع حديثهما بجلاء، لأن من عادة السكارى والمجان أن يتكلموا في الطريق بصوت مرتفع، ذلك أنهم لا يبالون ولا يستحون.

وفي تلك اللحظة ترامى إلى الأسماع صوت نقر على الدف من حارة معترضة، فصاح فيبوس بصوت جهير:

ـ أسرع يا جيهان برلك.

ـ ولماذا يا فيبوس؟

ـ أخشى أن تراني الغجرية.

ـ أي غجرية؟

ـ صاحبة العنزة.

ـ أتعني أزميرالدا؟

ـ بعينها يا جيهان. فاني أنسى اسمها الشيطاني على الدوام، فأسرع حتى لا تراني، فاني لا أحب أن تتحدث إلي في الشارع.

هل تعرفها إذن يا فيبوس؟

وعندئذ سمع الأسقف ضحكة خبيثة تنطلق من فم فيبوس ثم رآه يميل على أذن جيهان و يسر إليه شيئاً، ثم ينفجر ضاحكاً و يهز رأسه هزة المزهو بانتصاره، فقال جيهان.

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ بشرفي.

ـ الليلة الليلة؟

ـ الليلة.

ـ وهل واثق أنت أنها ستأتي؟

ـ هل أنت أبله يا جيهان؟ وهل يشك الانسان في مثل هذا الأمر؟

ـ إنك رجل مجدود يا كابتن فيبوس.

وسمع الأب كلود فرولو هذا الحديث كله، فاصطكت أسنانه، وانتابت الرعدة جسده كله ووقف في مكانه لحظة مستنداً إلى جدار، شأن المخمور المتداعى، ثم استأنف تعقب الصديقين الماجنين، ولكنه حين لحق بهما وجدهما قد غيرا مجرى الحديث.

هو الحب

تقع حانة «تفاحة حواء» في حي الجامعة على ناصية شارعين، والقاعة الرئيسية في الطابق الأرضي، وهي واسعة منخفضة السقف في وسطها عمود ضخم من الخشب مطلي باللون الأصفر، وكان الليل قد أخذ يرخي سدوله، فالشوارع معتمة والحانة موقدة الشموع. فتبدو من بعيد كأنها كور حداد وللكؤوس فيها رنين تطغى عليه ضحكات الندمان وصيحاتهم وشجارهم. غير أن ذلك ما كان ليزعج أحداً لأن الطريق خال من وقت طو يل بسبب الظلام.

كان هذا هو المفروض، وكان من الممكن أيضاً أن يكون هو الواقع. لولا أن شخصاً كان يروح و يغدو أمام باب الحانة في قلق ظاهر. وقد اشتمل بعباءته مغطياً نصف وجهه الأسفل حتى ما تحت عينيه، فعيناه على باب الحانة كأنه يترقب خروج شخص.

وأخيراً انفتح الباب وخرج اثنان منتشيان، فتوارى الرقيب في باب بالناحية الأخرى من الشارع، وإذا أحد الشابين يصيح:

ــ لقد حان موعدي، تمام السابعة.

ــ على مهلك. فساقاي لا تستطيعان حملي بهذه السرعة.

ــ اعمل مروفاً. فاني لا أستطيع التأخير. ولا بد لي من مفارقتك.

ــ إذهب أنت إذن.

ــ أعطني إذن نقوداً.

ــ ومن أين لي؟ لقد شربنا بها كلها.

ــ يا حبيبي جيهان. أنت تعلم أنني يجب أن أقابل هذه الفتاة عند قنطرة القديس ميشيل، وليس أمامي مكان أجتمع بها فيه إلا عند

العجوز فالورديل قرب القنطرة، وهي تتناول دائماً أجر الحجرة سلفاً. فأتوسل إليك يا جيهان. ألم يبق معك شيء؟

ـ لا شيء على الاطلاق.

فتركه فيبوس يترنح وانطلق وحده هو يسب و يلعن، وتعقبهت الأسقف تاركاً أخاه يتقيأ على جانب الطريق تحت رحمة القضاء والقدر.

وعند منعطف الشارع فطن فيبوس إلى أن هناك من يتعقبه، بيد أنه لم يكترث لأنه مفلس، وماذا يخاف المفلس من لص؟

و بعد شوط آخر أدرك أن الشبح لا يزال يتعقبه، فوقف في مكانه، بيد أن الشبح لم يقف بل استمر في طريقه إلى أن واجهه، فحدق في فيبوس بعينين ثابتتين تلمعان في الظلام كعيني القطط، فارتبك فيبوس ولم يدر ماذا يصنع أمام هذا الشبح العجيب الذي لا يسلك سلوك اللصوص وقطاع الطريق. أما هذا الشبح فقد جعل الدم يجمد في عروقه، لأنه خشي أن يكون عفريتاً من عفاريت الرهبان التي تزعم الاشاعات أنهم يجو بون الشوارع في الليل.

وأخيراً ابتلع ريقه وقال وهو يتصنع الضحك:

ـ إن كنت لصاً يا سيدي، فان أمامك لسوء حظك أشد رجال الجيش إفلاساً.

فأخرج الشبح ذراعه من تحت عباءته ووضعها فوق عاتق الضابط ثم قال:

ـ كابتن فيبوس دي شاتو بير!

ـ يا للشيطان! أتعرف اسمي؟

فأجابه الشبح بصوت كأنه خارج من جوف قبر.

ـ ليس ما أعرفه فقط هو اسمك، بل أعرف أيضاً أنك على موعد هذه الليلة.

ـ هذا صحيح..!
ـ في الساعة السابعة.
ـ أي بعد ربع ساعة..!
ـ ومكان الاجتماع عند العجوز فالورديل أمام قنطرة القديس ميشيل.
ـ وما اسم هذه المرأة؟
ـ أزميرالدا.

فاذا فأصابع الشبح تكاد تنغرس في ذراع الضابط وهو يهزه و يصيح به:
ـ كابتن فيبوس دي شاتوبير، أنت كاذب!

ولو قالها أي إنسان لما أمن عاقبتها، ولكنه أمام شبح، فارتعد غضباً وهتف:
ـ أنت تكذب!

فصرف الضابط على أسنانه، ونسى كل شيء عن غرابة الموقف، وصاح:
ـ هيا! سيفك يا هذا!

ولكن الآخر لم يتحرك من مكانه. ولما رأى الضابط وقد جرد سيفه مستعداً للاشتباك في القتال، قال له بلهجة تقطر مرارة:
ـ كابتن فيبوس! أراك نسيت موعدك.

فكان ذلك كافياً لرد الضابط إلى صوابه في الحال، فجمد في مكانه وخفض ذؤابة سيفه، وعندئذ استطرد الشبح قائلا:
ـ كابتن فيبوس. غداً، أو بعد غد، أو بعد شهر، أو بعد عشرة أعوام، ستجدني في انتظارك كي أقطع رقبتك، أما الآن فاذهب إلى موعدك أولا.

فقال فيبوس:

ـ الواقع أن المرأة والسيف عنصران يلذ اجتماعهما في مغامرة واحدة. ولكن معك حقاً، فلست أرى وجها للتفريط في أحدهما من أجل الآخر، ما دام في وسعي أن أنالهما جميعاً على التعاقب.

ثم أغمد سيفه واستأنف كلامه:

ـ وشكراً لك يا سيدي على مجاملتك هذه. ففي الوسع أن نتقابل غداً ونتقاتل. والآن أستودعك الله، ولكن مهلا، يبدو لي أنك رجل شهم، وما دمت حريصاً على أن أنال لذتي، فهلا أعنتني عليها. فصاحبة الحجرة لن تسمح لنا بالمبيت فيها بلا مقابل، وليس معي ما أعطيها إياه، والحق أنني كنت في حيرة من أمري.

ـ هاك ما يكفي.

فمد فيبوس يده ليتناول الجنيه الذهبي، ولكن الشبح لم يسلمه له بل قال:

ـ بشرط.

ـ ما هو؟

ـ أن تثبت لي خطئي، وأنك كنت صادقاً.

ـ وكيف تريد هذا الاثبات؟

ـ تخفيني في ركن أرى فيه بعيني أن التي سميتها هي التي تجتمع بها.

ـ سيان عندي: ففي الحجرة خزانة منفصلة تستطيع أن تختبىء فيها وتنظر من ثقب الباب.

ـ إذن هيا بنا.

ـ سأقدمك أولا إلى العجوز، ثم أتركك في الخزانة وأذهب لاحضار الفتاة.

ـ وهو كذلك.

وما لبث الضابط أن وقف عند باب منخفض فطرقه لبرزت منه عجوز طلبت إليهما أن يصعدا السلم وراءها. وهناك وضعت مصباحها

فوق دولاب له درج، وفتح فيبوس باباً جانبياً يؤدي إلى الخزانة، وقال لصاحبه:

ـ ادخل هنا أيها الصديق.

فدخل الرجل الملثم بعباءته وأقفل عليه الباب، وبعد لحظة سمعه يهبط السلم مع المرأة واختفى النور. فجعل يغمض عينيه ويفتحهما، كي يتعود الظلام ثم تحسس الأرض إلى أن عثر بقطعة مكسورة من الزجاج، فوضعها فوق جبهته كي ترطب ببرودتها الحمى التي كان يشعر بها تسري في أوصاله.

والله وحده يدري ما الذي كان يعتلج في هذه اللحظة في سريرة الأسقف.

وطال انتظاره ربع ساعة، شعر بعدها أنه شاخ خمس عشرة سنة في هذه الدقائق الخمس عشرة. وفجأة سمع وقع أقدام تصعد السلم، ورأى بصيصاً من النور من خلال خشب الباب، فوضع عينه على ثقب متسع بحيث يرى كل ما يدور في الحجرة الأخرى.

وكان أول ما رآه هو دخول المرأة العجوز حاملة المصباح في يدها ومن ورائها فيبوس يفتل شاربه، ومن ورائه طلعة أزميرالدا اللهية، فزاغت عيناه وارتعدت أوصاله وخانته ركبتاه وأحس بعروق رأسه تنتفض انتفاضاً شديداً، وغاب عن وعيه برهة. فلما ثاب إلى نفسه رأى فيبوس وأزميرالدا وحدهما جالسين فوق الأريكة إلى جوار المصباح.

وكان وجه الفتاة متضرجاً بحمرة شديدة، وهي ترتعد وتضطرب غضيضة الطرف لا تجسر على رفع عينيها إلى الضابط الذي كان منتفخ الأوداج.

وكان الحسناء تداري اضطرابها بالتشاغل برسم خطوط بأناملها على حرف الأريكة. أما قدمها فلم يتمكن من رؤيتها، لأن العنزة كانت راقدة فوقها.

وفي مشقة شديدة استطاع الأسقف أن يسترق السمع، لأن دقات قلبه كانت تعصف به وتملأ أذنيه لفرط انفعاله.

وسمع الفتاة تقول بصوت موسيقي دون أن ترفع عينيها عن الأرض.

ـ لا تحتقر شأني يا فيبوس. فاني أشعر أنني مقدمة على خطأ جسيم.

ـ أحتقرك يا جميلتي؟ ولماذا بحق الشيطان؟

ـ لأنني تبعتك.

ـ أنا لست على مذهبك في هذا. بل أني يجب أن أكرهك.

فحملقت فيه الفتاة عندئذ مروعة وهتفت:

ـ تكرهني؟ لماذا؟ ماذا صنعت؟

ـ لأنك تأخرت طو يلا واقتضيت مني كل هذا الالحاح.

ـ كلا. ليس هذا. فلا تظن أني أمتن عليك أو كنت متمنعة غير راغبة. فالأمر على عكس هذا تماماً، وكل ما هناك أنني مقدمة على الحنث بنذري، وسوف لا أهتدي الى أهلي، وستفقد التعو يذة تأثيرها السحري، ولكن ما قيمة هذا كله إذا حرمت منك؟ وما أبي وما أمي بالنسبة لي الآن بعد أن وجدتك يا حبيبي!

وكانت ترمقه بعينين واسعتين سوداو ين يأتلق فيهما الحبور والهيام، فصاح:

ـ فليأخذني الشيطان إذا كنت قد فهمت حرفاً واحداً.

فظلت أزميرالدا صامتة برهة، ثم انحدرت من عينها دمعة، وانطلقت من شفتيها آهة. وقالت في شغف وتوله:

ـ آه يا عزيزي. كم أحبك..!

وكان يشع من الفتاة جو من الطهر والعفاف، بحيث أن فيبوس

الماجن الداعر نفسه لم يجد نفسه على سجيتها في سهولة تناولها بيد أن هذه الكلمات شجعته فقال:

ـ وأنا أحبك!

وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة، فطوق بذراعه خصرها، فلما رأى الأسقف ذلك تحسس بأصابعه مقبض الخنجر الذي يحمله في ثنايا ثوبه.

واستطردت الفتاة تتشبب بصاحبها وتصب روحها في كلماتها:

ـ فيبوس. أنت كريم شهم وجميل. لقد أنقذتني أنا التي لست إلا فتاة وضيعة من فتيات بوهيميا الغجريات، وطالما حلمت بضابط ينقذ حياتي. أنت الذي حلمت به قبل أن أعرفك يا فيبوس واسمك ما أجمله. أنا أحب اسمك. وأحب بدلتك وأحب سيفك. أشهر سيفك يا فيبوس حتى أراه..

فشهر الضابط سيفه باسماً وهو يقول لها:

ـ يا لك من طفلة.

فنظرت الفتاة أولا إلى مقبضه، ثم إلى فرنده، ثم قبلت حده قائلة:

ـ أنت سيف رجل شجاع، وأنا أحبه لشجاعته.

فانتهز فيبوس هذه الفرصة وطبع على عنقها الجميل قبلة جعلت الفتاة تتراجع وقد اصطبغ وجهها بلون القرمز، وجعلت الأسقف يصرف بأسنانه في الظلام. ثم قالت الفتاة:

ـ فيبوس دعني أتحدث إليك أولا. قم نمشي قليلا حتى أرى طولك وأسمع رنين مهمازيك، لله كم أنت جميل!

فنهض الضابط ليؤدي هذه الضريبة على مضض، لأنها في نظره تتعلق بعاطفيات تافهة جداً ومعطلة لصميم الموضوع. فلما خطر أمامها قليلا عاد إليها فجلس بجوارها وقال:

ـ والآن اسمعي يا عزيزتي.

ـ كلا. سوف لا اسمع. هل تحبني؟ أريد منك أن تخبرني كم تحبني؟

فركع فيبوس على الأرض بركبة واحدة وقال:
ـ أتسألينني هل أحبك؟ إن دمي وروحي ومالي كلها رهن إشارتك. إني أحبك، ولم أحب في حياتي كلها إلا أنت!

وكان فيبوس قد تعود القاء هذه الكلمات في مناسبات كثيرة من قبل، فأطلقها كلها في نفس واحد وبغير تلعثم. أما المسكينة فكانت تسمعها لأول مرة، فرآها الأسقف ترفع وجهها إلى أعلى بنظرة ملائكية تطفح بالبشر والحبور وقالت:
ـ سبحانك ربي! هذه هي الساعة التي يحلو بعدها الموت.

أما فيبوس فرأى أنها هي اللحظة التي تحلو عندها القبلة، فقطف من ثغرها قبلة مزقت أحشاء سيدنا الأسقف في الخزانة المظلمة.

وأحسست الفتاة عندئذ بيده تعبث بحمالة صدرها من الخلف. فقالت بحدة:
ـ ماذا أنت صانع؟
ـ لا شيء. ولكني كنت فقط أرى أنه لا يحسن أن تظلي بهذه الملابس التي ترتدينها للجمهور وأنت جالسة معي.
ـ آه. وأنا جالسة معك يا حبيبي فيبوس!

ثم لم تبد بعد ذلك مقاومة أمام أصابعه التي بادرت إلى حل حمالة الصدر قم الحزام، فانكشف لناظري الأسقف نحرها وكتفها العاري. كما يتكشف البدر الساطع من وراء الغمام، وتركته الفتاة يفعل ما يشاء، وهي كمن لا تشعر بما يقدم عليه، ثم التفتت إليه فجأة وهو منهمك في نضو بقية ملابسها عنها وقالت:
ـ فيبوس. علمني دينك.

فانفجر الضابط ضاحكاً وقال:

ـ ديني؟ أعلمك ديني؟ وماذا تريدين بحق قرون الشيطان من ديني؟

ـ كي نستخدمه في إتمام زواجنا.

فبدت الدهشة الشديدة على وجه الضابط وقال:

ـ وهل في الحسبان زواج؟

فاكفهر وجه الغجرية، وسقط رأسها على صدرها فقال لها بحنان:

ـ يا حبيبتي. ما معنى هذا الهذر؟ إن الزواج شيء رائع طبعاً. ولكن هل سيكون حبنا أقل روعة إذا لم يزمزم عليه قسيس ألفاظاً لاتينية جوفاء؟

وكان يقترب منها و يزيد بها التصاقاً وهو يقطر تلك الكلمات في أذنها، كأنها رقية ساحر.

وكان الأسقف يرقب كل هذا من مكمنه. والباب يسمح له بالرؤية الواضحة من خلال ثقبه الكبير. ولكنه كاد يصاب بالفالج في موقفه هذا الذي يرى فيه ابن آوى يهم بافتراس غزال لين سمعه و بصره.

وعلى حين غرة انتزع فيبوس حمالة صدر الفتاة، فنفر ثدياها لا يقيهما من نظراته ومن يديه شيء، فارتاعت الفتاة كمن روعت من نومها، وتراجعت مبتعدة عنه، ثم غطت ثدييها براحتيها، وقد تضرج وجهها تضرجاً شديداً وغضت طرفها إلى الأرض.

ولما تعرى صدر الفتاة انكشفت التعو يذة المعلقة عليه، فتذرع فيبوس بالرغبة في معرفة كنهها، ومد يده، كي يلمسها من جديد فقالت: «لا تلمسها. فهي تعو يذتي، وعن طريقها سأهتدي إلى أهلي إذا أنا صنتها من يد اللامسين، فدعني وحياتك يا سيدي الضابط».

فتراجع فيبوس وقال بفتور: «إنك لا تحبينني!».

ـ أنا لا أحبك؟ لا أحبك يا حبيبي فيبوس؟ ماذا تقول؟ أتريد أن تطعن قلبي في الصميم؟ تعال! اقترب! خذني! خذ كل شيء وافعل بي

كما تشتهي. فاني لك. فما قيمة التعو يذة عندي؟ ما أمي وما أبي ما دمت أحبك؟ أنظر يا فيبوس، أنا الفتاة السعيرة التي وهبتك من تلقاء روحها وحياتها وجسدها. فهي كلها لك يا حبيبي، وليكن لم ما تريد. سأكون لك بغير زواج، ما دمت لا تريد زواجاً. ثم ماذا أنا سوى فتاة وضيعة من عرض الطريق، أما أنت يا حبيبي فيبوس فرجل نبيل. وما كان أعظم جنوني حين خطر لي أن راقصة متجولة يمكن أن تتزوج ضابطاً. كلا يا فيبوس. سأكون عشيقتك، ولهوك، ولذتك، حين تشاء وكلما شئت. سأكون لك ولك وحدك. فلهذا دون غيره خلقت: للاحتقار والتدنيس. ولكن ماذا أيضاً؟ للحب! وإذا شخت وذبلت محاسني فلا تطرحني بعيداً عنك، واسمح لي يا حبيبي أن أقوم على خدمتك مع محظيتك الجديدة الشابة الحسناء. فأطرز لك الثياب وألمع مهمازيك وحذاءيك. أليس كذلك يا حبيبي فيبوس؟

ثم طوقته بذراعيها، ورفعت عينيها إلى وجهه متوسلة باسمة خلل دموعها تدعوه إليها. وشعرت بتطريز قميصه يحتك بعنقها الرقيق الناعم. ثم طبع الضابط المنتشى على شفتيها المتوهجتين بالحنين إلى الحب قبلة من شفتيه الملتهبتين، فشخصت بعينيها إلى الأسقف، وقد اختلج كل موضع في جسمها تحت وقع قبلاته.

وفي هذه اللحظة أبصرت فوق رأس فيبوس رأساً آخر، رأساً غريباً متجهماً متقبض الأسارير شيطاني النظرات، وقد شهر في يده خنجراً مسنوناً.

لقد كان هذا هو الأسقف كلود فرولو، وقد خرج من مكمنه في تلك اللحظة التي أطبق فيها فيبوس على فريسته وقد هم أن يلتهمها. فلم يكن في استطاعة فيبوس أن يراه. أما الفتاة فعقدت المفاجأة لسانها، وشلت حركتها، كما تشل حركة اليمامة فتحت عينيها في مطلع النهار لترى الأفعوان يحدق في وكرها بعينه الثاقبة.

ولم تدر إلا والخنجر يهبط كالبرق الخاطف ثم يرتفع وهو يقطر دماً،



وأبصرت أزميرالدا رأساً آخر متجهماً منقبض الاسارير شيطانى النظرات وقد شهر فى يده خنجراً مسنوناً فوق رأس فيبوس

ثم سمعت فيبوس يطلق صرخة مدوية و يسقط على الأرض. وغشى بعد ذلك عليها فغابت عن صوابها، ولكنها شعرت بشيء كجمرة النار تطبق علي شفتيها. لقد كانت قبلة حارقة!

ولما ثابت إلى رشدها وجدت من حولها رجال الشرطة، وقد هموا بحمل الضابط الغارق في دمائه. أما الكاهن فكان قد اختفى وأما النافذة المطلة على النهر فكانت مفتوحة على مصراعيها. ورأت رجال الشرطة يرفعون من على الأرض عباءة سوداء اعتقدوا أنها عباءة الضابط، ثم سمعتهم يقولون:

ــ لقد قتلت الساحرة ضابطاً بطعنة خنجر.

محاكمة أزميرالدا

استولى القلق الشديد على جرنجوار وسائر سكان رحبة العجائب، فقد انقضى شهر كامل وهم يجهلون مقر أزميرالدا، فاستولى الحزن على دوق بوهيميا وأتباعه من الغجر. ولم يكونوا يعلمون أيضاً مصير عنزتها الصغيرة، الأمر الذي جعل حزن بيير جرنجوار مضاعفاً. فقد اختفت الفتاة الغجرية ذات مساء، ولم تصلهم منها أي إشارة تدل على وجودها على قيد الحياة وذهبت جميع وسائلهم في البحث والاستقصاء أدراج الرياح.

وفي ذات يوم، وقد خرج بيير جرنجوار على عادته منذ اختفاء أزميرالدا لتسقط أخبارها، ساقته قدماه عفواً أمام محكمة الجنايات. فلاحظ تجمع عدد كبير من الناس أمام أبواب قصر العدل، فسأل أحدهم.

ـ ما الخبر؟

ـ لست أدري يا سيدي. و يقال أنهم يحاكمون امرأة لقتلها رجلا من رجال الشرطة. ولما كانت في القضية عناصر تنسب إلى السحر والشعوذة، فقد تدخل المطران في القضية. بل أن شقيقي أسقف نوتردام لا هم له إلا التفكير فيها، وقد حضرت إلى هنا بغية مقابلته، ولكن زحام الناس في القاعة حال بيني و بين الوصول إليه، مع أني في حاجة ماسة لمقابلته كي أحصل منه على شيء من المال.

ـ آسف يا سيدي، إذ ليس في وسعي أن أقدم لك يد المعونة، وإذا كانت جيو بي مثقوبة كما ترى، فليس ذلك من ثقل ما بها من النقود.

ولم يشأ جرنجوار أن يصارح الشاب بأنه يعرف أخاه الأسقف، ذلك أنه قصر في زيارته منذ اجتمع به في الكنيسة ذلك المساء على ما يعلم القراء.

وانصرف جيهان لحال سبيله، أما جرنجوار فصعد السلم المفضي إلى القاعة الكبرى، تلك القاعة التي شهدت أول مأساته في التأليف المسرحي.

ولم تكن به رغبة خاصة في مشاهدة تلك القضية، بيد أنه قدر أن محاكمة ساحرة متهمة بالقتل فيها ترو يح عن نفسه، مما يلاقيه من العناء والهم. وكان الناس يتدافعون بالمناكب مع التزام الصمت التام، فشق لنفسه طريقاً بينهم حتى وصل إلى القاعة الرحبة التي يسودها الوجوم.

وسأل جرنجوار الشخص الذي وقف بجواره:

ـ من هؤلاء الجالسون هناك في صف عن يمين الرئيس؟

ـ هم يا سيدي المستشارون في المحكمة العليا.

ـ والصف الذي على اليسار؟

ـ قضاة التحقيق.

ـ وهذا الجالس في الصدر بوجهه الأحمر الضخم؟

ـ إنه سيادة الرئيس.

ـ وهذا الحلوف الوحشي الواقف أمامه؟

ـ إنه مسجل محكمة البرلمان.

ـ وعن يمينه، من هذا التمساح؟

ـ إن المحامي العام.

ـ وعن يساره، من هذا القط الأسود؟

ـ إنه الأستاذ جاك شارموني، النائب العام لدى المحكمة الكنسية.

ـ وفيم اجتماع كل هؤلاء يا سيدي؟

ـ لمحاكمة شخص اقترف جريمة.

ـ لمحاكمة من؟ فلست أرى سجيناً.

ـ إنها امرأة يا سيدي. ولا تستطيع أن تراها لأن ظهرها إلينا وقد حجبها عنا الجمهور.

ـ ومن هي هذه المرأة؟ أتعرف اسمها؟

ـ كلا يا سيدي. فقد وصلت من فوري. ولك ما أعرفه أن في القضية شيئاً يتعلق بالسحر. ولهذا مثلت الكنيسة في الدعوى.

ـ لا بأس. فلنتفرج، ولن تخلو الفرجة من تسلية.

وفي هذه اللحظة أشار إليهما من حولهما بالصمت، فقد بدأت مرحلة مهمة في مراحل القضية. ووقفت في وسط القاعة امرأة عجوز فقالت:

ـ المسألة يا أسيادي كما قلت. وأنا متأكدة منها كتأكدي من أن اسمي فالورديل. وقد عشت في بيتي هذا قرب قنطرة القديس ميشيل أربعين سنة. كنت أؤدي فيها الايجار بانتظام، وكذلك العوائد وجميع الضرائب. وأنا الآن امرأة عجوز، ولكني كنت فيما مضى صبية منظرانية يا حضرات القضاة.

فقال الرئيس مقاطعاً:

ـ اذكري أقوالك للمحكمة.

ـ سمعاً وطاعة أيها السادة. في ذات ليلة كنت أغزل في داري. فسمعت طرقاً على الباب. ففتحت ورأيت رجلين. أحدهما ضابط جميل الصورة، والآخر رجل ملتف في عباءة سوداء لا يتبين الناظر شيئاً من ملامح وجهه سوى عينين كأنهما جمرتان متقدتان. أما سائر شكله فعباءة فضفاضة وقبعة عريضة، وقالا لي: «نريد حجرتك العلوية»، وهي خير حجرة عندي يا حضرات السادة. وأؤجرها لمن شاء من حضراتكم بريال في الليلة واسمي فالورديل، وكل من في منطقة قنطرة القديس ميشيل يعرفونني. اسأل فقط عن العجوز فالورديل. وأخذت الريال مقدماً. فأنا آخذ الايجار مقدماً يا حضرات السادة. ووضعته في

درجي، وصعدت معهما. وهناك اختفى ذو العباءة السوداء. فأدهشني ذلك قليلا، ولكني لم أتكلم. ثم نزل الضابط الجميل معي ثانية وغادر البيت. فقلت لعله ذهب يشتري شيئاً. ولم يلبث أن عاد بعد ربع ساعة وفي صحبته فتاة جميلة في مقتبل العمر. جميلة كالشمس في أوج بهائها، ولو وجدت من يرجل شعرها كما ينبغي لما صمدت لمنافستها امرأة في باريس كلها، وكانت معها عنزة كبيرة، لست أذكر الآن هل كانت عنزة بيضاء أو سوداء. فرحت أفكر في قلق، لا في الفتاة طبعاً، فأمرها لا يعنيني. بل في تلك العنزة. فقد كانت تشبه الانسان في كثير من الأشياء. ولا سيما *بلحيتها! ومع ذلك فلم أتكلم*، لأنني كنت قد قبضت الريال. وهذا هو العدل يا حضرات السادة، فاني امرأة عادلة في معاملتها. ومتى قبضت الريال أدع عملائي يفعلون ما يشاؤون. ولذلك صعدت مع الضابط والفتاة والعنزة إلى الغرفة العلو ية وتركت الثلاثة وحدهم ونزلت. وأحب أن أذكر لكن أن نافذة بيتي الخلفية تطل على النهر.

ـ وماذا فعلت بعد نزولك يا امرأة؟

ـ عدت إلى مغزلي كأي امرأة صالحة. ولكن لست أدري لماذا ظل ذهني مشغولا بالعنزة و بالرجل الغامض ذي العباءة السوداء. وفجأة سمعت صرخة صادرة من الطابق العلوي، ثم صوت سقوط شيء على الأرض، وصوت فتح النافذة، ففتحت نافذة الطابق السفلي، وهي أيضاً تطل على الماء، فرأيت كومة سوداء تسقط في النهر، وتراءى لي في ضوء القمر أن الساقط كان على صورة قسيس أخذ يسبح متجهاً نحو المدينة. فخرجت إلى الشارع صارخة حتى أقبل البوليس، والباقي تعرفونه أيها السادة. فقد وجدنا الضابط الجميل غارقاً في دمائه من أثر طعنة الخنجر، والفتاة ممزقة الثياب وقد تصنعت الموت. ولكن أسوأ ما في الأمر يا حضرات القضاة أنني حين بحثت عن الريال في درجي في اليوم التالي، وجدت في مكانه ورقة شجر جافة. لقد كان ريالا مسحوراً.

فعلت الهمهمة بين الحاضرين في الجلسة، وآمنوا كما آمن القضاة

والمستشارون أن المسألة كلها سحر من تدبير الشيطان بالاتفاق مع الغجرية الصغيرة.

وعندئذ وقف الأستاذ جاك شارموني النائب العام فقال:

ـ وأحب أن أذكر للمحكمة أن ورقة الشجر هذه كانت ورقة لبخ. وذلك دليل إضافي على استعمال السحر ضد الضابط فيبوس دي شاتو بير.

وما إن سمعت المتهمة اسم فيبوس، حتى وقفت وراحت تحدق فيما حولها ببصر زائغ قائلة بصوت يهز المشاعر:

ـ فيبوس. أين هو؟ بالله أيها السادة قبل أن تقتلوني خبروني أنه لا يزال على قيد الحياة، وبعد ذلك اقتلوني..

فلما وقفت وتكلمت عرفها جرنجوار. ولكنه رآها كالهيكل العظمي صفراء الوجنيتن زرقاء الشفتين غائرة العينين.

وأجابها النائب العام:

ـ اخرسي! إنه يموت..

فارتمت الى مقعدها ولم تنطق، وقد جمد الدمع في عينيها، وقال الرئيس:

ـ أيها الحاجب، أدخل المتهمة الثانية.

وكانت المتهمة الثانية هي جالي، بقرونها وأظلافها المذهبة.

ولا تدهش أيها القارىء. فلم يكن أشيع في ذلك العصر من محاكمة الحيوانات بتهمة السحر والشعوذة.

وعرضت العنزة ألعابها، كما كانت تعرضها بصحبة أزميرالدا، باشارة وتوجيه من سعادة النائب العام، فقر في أذهان القضاة والمشاهدين أن بها مسا من الشيطان.

وأخيراً وجه الرئيس الكلام إلى أزميرالدا قائلا:

ـ أيتها الفتاة. أنت غجرية من سلالة اشتهرت بالسحر، وأنت متهمة بالاشتراك مع عنزتك المسحورة بأنك في ليلة ٢٩ مارس الماضي قد طعنت بالخنجر، وآذيت بالأساليب السحرية ضابطاً من قناصة الملك، اسمه فيبوس دي شاتوبير، فهل تصرين على الانكار؟

فغطت الفتاة وجهها بيديها وصاحت:

ـ فيبوس؟ إن هذا لفظيع.

ـ هل تصرين على الانكار؟

ـ نعم.

ـ إذن بماذا تفسرين الوقائع المنسوبة إليك؟

ـ سبق أن ذكرت لكم أنني لا أدري. فالجاني قسيس لا أعرفه، قسيس شيطاني جهنمي داب على تعقبي ومطاردتي.

ووقف الأستاذ جاك شارموني النائب العام فقال:

ـ بالنسبة لاصرار المتهمة على الانكار، ألتمس استعمال التعذيب.

فقال الرئيس بهدوء ووقار:

ـ قررت المحكمة إجابة هذا الطلب.

ونقلوا أزميرالدا من قاعة المحكمة إلى حجرة التعذيب، عن طريق سراديب مظلمة وسلالم صاعدة وهابطة، إلى أن دفع بها الحراس آخر الأمر، فاذا بها في غرفة رهيبة، دائرية الشكل، كانت تحتل الطابق الأرضي من أحد أبراج قصر العدل.

وتلك الغرفة خالية من النوافذ، لا يدخلها ضوء الشمس. ولكنها في هذه اللحظة لم تكن بحاجة إلى ضوء. فقد كان في فجوة أحد جدرانها أتون مشتعل تتراقص فيه ألسنة النار، وقد رفع عنه غطاؤه، وحميت فيه قضبان من الحديد وكلابات.

وأبصرت الفتاة على وهج النيران أدوات عجيبة الشكل متناثرة في الحجرة، فلم تعرف لوجودها معنى. وكان في وسط القاعة كرسي من

فوقه حزام من الجلد متصل بحلقة في السقف، فشعرت الفتاة بخوف لا مزيد عليه، واصطف الحراس بجوار الحائط. أما كاتب المحكمة فجلس إلى مكتب صغير في الركن، ووضع أمامه القلم والأوراق.

وأقبل النائب العام الأستاذ جاك شارموني، فهو الذي سيتولى استنطاق المتهمة عن طريق فنون التعذيب المختلفة، فدنا منها وقال باسماً:

ـ والآن يا بنية، هل تصرين على الانكار؟

ـ نعم.

ـ إذن فلا بد مع الأسف الشديد من حملك على الاعتراف بطريقة لم نكن نود اللجوء إليها. والآن أجلسي فوق هذا الكرسي.

ثم التفت إلى الجلاد وقال له:

ـ أجلسها بنفسك، وأغلق الباب.

فقال الجلاد:

ـ إذا أغلق الباب انطفأت النار.

ـ لا بأس، دعه مفتوحاً إذن.

وباشارة من الأستاذ جاك، انقض اثنان من مساعدي الجلاد عليها وربطاها في المقعد.

وعندئذ عاد النائب العام إلى سؤالها:

ـ والآن اسألك قبل أن يبدأ التعذيب، هل ما زلت مصرة على الانكار؟

فهزت الفتاة رأسها وقد جف ريقها فلم تستطع الكلام فصاح عندئذ النائب العام في لهجة الرجل الطيب المكره على ما لا يحب:

ـ أتصرين؟ لا حيلة لي إذن في القيام بواجبي.

ثم التفت إلى كبير الجلادين وقال له:

ـ ابدأ بالكي.

ورمق الفتاة بنظرة جانبية، فوجدها مستسلمة لا تبدي حركة، وقد سقط رأسها فوق صدرها كأنها خرقة بالية.

وتقدم نحوها كبير الجلادين، في حين انصرف المساعدان إلى البحث في الأنون عن المكاوي المطلوبة. فكان صليل تلك الأدوات الحديدية كافياً في حد ذاته لبث الرعب في قلبها، ثم أغمي عليها.

وشرع المساعدان يكشفان عن إحدى ساقيها المشوقتين الرخصتين. ووقف كبير الجلادين يحدق في تلك الساق التي كأنها برعم وردة ناضرة، وهز رأسه أسفاً.

وفي اللحظة التالية شعرت أزميرالدا بألم هائل، فصرخت منتحبة وهي تهم بالقيام:

ـ الشفقة! الرحمة!

وأشار الأستاذ جاك بيده، فأحاطوا خصرها بذلك الحزام المدلى من لبالسقف ، ثم قال الأستاذ جاك بعدئذ:

ـ والآن أسألك للمرة الأخيرة، هل تعترفين؟

ـ اقسم لك على براءتي.

ـ فبماذا تفسرين كل هذه القرائن؟

ـ لا أدري يا سيدي للأسف الشديد.

ـ أنت إذن متشبثة بالانكار.

ـ إني بريئة.

فالتفت الأستاذ جاك إلى كبير الجلادين، فأدار عجلة صغيرة، فأخذ الحزام يضيق حول خصرها إلى أن أطلقت صرخة مدوية، فصاح شارموني بالجلاد:

ـ حسبك.

ثم التفت إليها وسألها هل تعترف، فصرخت:

ـ نعم. كل ما تريدون أوافق عليه، فارحموني.

ـ ولكن أرى من واجبي أن أنبهك إلى أن اعترافك هذا سوف لا ينجيك من الموت.

ـ سيدي. وهل لي مطلب سوى الموت؟

ـ هل تعترفين أنك استعملت السحر واتصلت بالشياطين والأرواح النجسة؟

ـ نعم.

ـ وبأنك متحالفة مع الشياطين التي تتقمص عنزتك؟

ـ نعم.

ـ وهل تعترفين بأنك بالاتفاق مع الشيطان أقدمت على قتل الضابط فيبوس دي شاتوبير في مساء يوم ٢٩ مارس؟

ـ نعم.

فالتفت النائب العام إلى كاتب الجلسة قائلا:

ـ هل سجلت كل هذه الاعترافات؟

ـ نعم يا سيدي النائب العام.

ـ إذن أطلقوها. وأعيدوها إلى قاعة المحكمة.

وأعيدت الفتاة إلى قاعة الجلسة، في خطوة عرجاء، وسحنة صفراء ونظرة زائغة. فتلقاها الجمهور الذي كان ينتظر عودتها على أحر من الجمر باهتمام شديد، أما جالي فأعلنت عن شعورها بوصلة طويلة من الثغاء.

وكان الليل قد بدأ يطبق على باريس، والشموع التي أوقدت في القاعة الكبرى لا تكفي لتبديد الظلام. فزاد ذلك من رهبة القاعة ووجومها.

ودنا الأستاذ جاك شارموني النائب العام من المنصة وقال:

ـ سيدي الرئيس. إن المتهمة قد اعترفت اعترافاً كاملا بما نسب اليها.

فالتفت الرئيس عندئذ الى ازميرالدا وسألها:

ــ أيتها الغجرية. هل صدر منك اعتراف بكل ما وجه اليك من اتهام باستعمال السحر والاتصال بالشياطين والأرواح النجسة، و بالقتل؟

فسمع الناس في أرجاء القاعة صوت بكائها، فلما استحثها رئيس المحكمة بصوته الفاتر الوقور على الجواب، قالت بصوت متحشرج:

ــ أعترف بكل ما تريدون مني أن أعترف به، وليس لي إلا مطلب واحد.

ــ ما هو؟

ــ أن تعجلوا بموتي.

فساد القاعة صمت رهيب، واتجه سعادة الرئيس الى الأستاذ اك شارموني فقال:

ــ مرافعة النيابة العامة لدى المحكمة الكنسية.

فأخرج الأستاذ كام من جعبته أوراقاً كثيرة، ثم راح يتلوها بصوت حاد، وبأسلوب ركيك، ولا نظن أنه كان يعي حرفاً من نصوصها اللاتينية، وأكبر الظن أن الرئيس لم يلق بالا، فكل ما اهتم به هو الطلبات التى ختم بها النائب العام مرافعته المسهبة:

ــ ليس من دليل يا حضرات القضاة على الصلة والتواطؤ بين المتهمة وبين ابليس أبلغ مما ترونه بأعينكم من حضوره الى ساحتكم ليسخر من هيئتكم الموقرة.

وأشار بسبابته الى جالى. التي كانت على عادتها في عرض ألعاب التقليد قد شرعت في محاكاة حركات الأستاذ جاك. وعسى أن يذكر القراء أن تقليد الأستاذ جاك كان من النمر الطريفة التي يعجب بها

كل من شاهدها من قبل. أما الآن فقد كاءت تلك النمرة دليلا قاطعاً ضدها وضد صاحبتها.

أما الطلبات، فكانت تغريم المتهمة، ثم تعذيبها علناً في ساحة الاعتصاب أمام باب كنيسة نوتردام حيث كانت تعرض العابها الشيطانية ورقصاتها الفاجرة، ثم اعدامها شنقاً في ذلك الموضع نفسه.

وتداول القضاة مع رئيسهم لحظات، ثم نطق الرئيس بالحكم التالي:

ـ أيتها الغجرية. حكمت المحكمة بما طلبته النيابة العامة، على أن تكفري عن ـثمك أمام كنيسة نوتردام ثم تشنقي علناً في ساحة الاعتصاب حتى الموت. وكذلك تشنق العنزة الجهنمية حتى الموت. وعسى أن يتولاكما الله برحمته و يغفر لكما.

ودعوا آمالكم

جرت عادة أهل القرون الوسطى إذا شادوا بناء من أبنيتهم الضخمة أن يجعلوا ما تحت الارض منه مثل ما فوقها فاذا كان البيت من بيوت الله، كانت فيه كنيستان، كنيسة تستقبل السماء بأبراجها، وأخرى من تحتها غائرة في الارض، تضيئها الشموع ليلا ونهاراً، وتتصاعد منها أنغام الأرغن مسبحة بحمد الله وآلائه وإذا كان البيت حصناً أو سجناً، كان ما تحت الأرض سجناً أو أتخذوه مقبرة للموتى. وكثيراً ما كانت المقبرة والسجن تختلطان، فيبقى السجين في جوف الأرض منسياً حتى تضمنه الأرض إليها ميتاً.

وكان قصر العدل في باريس من الأبنية التي روعيت فيها هذه السنة، فمن حوكم في قاعتها الكبرى وخرج منها مذنباً، غاص في أعماقها لسفلية، حيث السجن زنزانات متفرقة، طبقات تحتها طبقات في باطن الأرض، وكأنما بلسان الحال على باب هذا السجن ذلك الذي رواه دانتي عن باب الجحيم الألهي:

وكان قصر العدل في باريس من الأبنية التي روعيت فيها هذه السنة، فمن حوكم في قاعتها الكبرى وخرج منها مذنباً، غاص في أعماقها لسفلية، حيث السجن زنزانات متفرقة، طبقات تحتها طبقات في باطن الأرض، وكأنما بلسان الحال على باب هذا السجن ذلك الذي رواه دانتي عن باب الجحيم الالهي:

«أيها الداخلون! ودعوا آمالكم جمعاء».

فمن دخل هذا السجن انقطع عهده بالنور وبالحياة وبكل أمل في

العودة اليها. وقد ينسى المذنب في هذا التيه الأرضي، فلا يخرج بعد أجل، و يقال حينئذ بلغة العدالة الأرضية أنه مذنب منسي.

والى جوف ذلك الجب زج بأزميرالدا، فانقطع عهد هذه الفراشة التي طالما رفت بين الهواء والنور والأقحوان بكل ما هو حبيب إليها، وابتلعتها ظلمات ذلك القبر الحي.

وكأني بهم لم يروا في تلك الأكداس الهائلة من صخر الجدران والأبواب ذات القضبان ضماناً كافياً لاستكانة هذه الفتاة الرقيقة الواهنة، فأوثقوا يديها بالأغلال وهي قيود من الحديد ثقيلة، مثقلة بكرات ضخمة من الحديد المصبوب.

وفي ذلك الجحر وجدت المسكينة كومة من القش القذر المتعفن في ركن بين الاركان فتهاوت فوقها، لتجد الماء قد نز منها لشدة الرطوبة.

وصعدت الدموع إلى مقلتيها، فهمت أن تطلقها، عسى أن يكون لهافي مسيلها راحة، لكن دموعها خذلتها، و بقيت معلقة بين أجفانها.

وابتدأ موكب العذاب يطيف بذهنها، حلقات من ذكريات ماضيها القريب تتوافد تباعاً، وكأنها شياطين من الجن يخزها كل واحد منها بحربة محماة في نار الجحيم.

وذكرت أول ما ذكرت أيامها المشترقة، وأشد ما فيها اشراقاً طلعة فيبوس، ونور الشمس، ونسمة الهواء، وانطلاقها في فضاء الله راقصة على سجيتها بين آلاف من الخلق يحدجونها بنظرات الاعجاب، و يصفقون لها ولعنزتها الصغيرة جالي.

وذكرت بعد ذلك ليلة الاختطاف، و يوم الوصال وما علقت على لذته من آمال. ثم بيت العجوز على شاطئ النهر، ثم القسيس الغامض وفي يده الخنجر، ثم المحاكمة القاسية وغرفة التعذيب وأتون النار وأدوات العذاب.

تراقص أمام عينيها في ظلمة سجنها الرطب كل هذا، فلم تكن ذكرياتها العذبة أرحم بها من ذكريات العذاب. فكل عذب تخيب فيه الآمال، ينطوي الصدر منه على حسرة موجعة ومرارة. وكل خسار ووبال يثقل على النفس، لأنها ترى حاضر مآلها نتيجة لتلك الكوارث التي سبقت واصطلحت عليها.

ولم يغمض للمسكينة جفن في ليلتها، بل أنها لم تعرف في سجنها ليلا من نهار، فلا نور ولا إشراق. فلا فرق بين صبح ومساء، ولا بين يقظة ومنام. فالأطياف تراودها والحقيقة أشد عجباً من أضغاث الاحلام.

وذات مساء، أو لعله ذات صباح، انتبهت المسكينة من شرودها على صليل من جهة الباب، ذلك الباب الذي لم يكن أمامها، بل كان فوق رأسها، فرفعت عينيها لترى بصيصاً من الضوء عشيت له عيناها فأغمضتهما، لتفتحهما بعد حين، فاذا الباب قد أغلق بالرتاج، وإذا المصباح قريب منها فوق أرض السجن.

وفي نور الذبالة التي تراءت لها ــ لطول ما افتقدت النور ــ سراجاً وهاجاً، أبصرت شخصاً متشحاً بنقاب أسود، وقد حجب وجهه بقبعة عريضة. فتفرست في وجهه، وتفرس في وجهها وقد جمدا في مكانيهما، فكأنهما في ذلك القبر الرطب وهذا الضوء الخافت شبحان من عالم آخر التقيا في ظروف حافلة بالأسرار.

وشقت أزميرالدا حجاب الصمت فسألته: «من أنت؟».

فأجابها الزائر الملثم:

ــ أنا قسيس جئت كي تفضي إليي باعترافك الأخير، وأطلب لك مغفرة الله التي تتسع لكل شيء على ما أسلفت من ذنوب وآثام.

وكان في صوته شيء رهيب ارتعدت له أوصالها. واستطرد بعد لحظة: «أمتأهبة أنت؟». فقالت: «متأهبة لأي شيء؟».

ـ للموت.

فأشرقت في قلبها بارقة سرور وأمل وسألته: «ومتى ذلك؟».
ـ غداً، عند الظهر.
ـ غداً؟ ولماذا غداً؟ لماذا لا ترحمونني فتقتلوني اليوم؟

فسكت القسيس قليلا ثم قال: «أشقية أنت إلى هذا الحد؟».

فضمت ركبتيها بين يديها، وقالت: «الا ما أشد البرد هنا».

فدار القسيس بعينيه في أرجاء المكان ثم قال:
ـ لا نور ولا نار ولا هواء.
ـ أجل.. إن كل إنسان يستمتع بالنور والهواء. فلماذا تحبسونني في الظلام؟

فسكت القسيس مرة أخرى إلى أن استحثته قائلة: «لماذا؟».
ـ ألا تعلمين لماذا أنت هنا؟

فمرت بيدها على جبهتها وقالت: «لا أدري!».

ثم انطلقت تنتحب، ورفعت إليه أكف الضراعة قائلة:
ـ أخرجني يا سيدي من هذا المكان، فاني أكاد أموت برداً وفزعاً.

فأمسك بمعصمها وقال لها بصوت أجش: «إذن هيا معي».

فسرت في جسمها قشعريرة للمس يده، وهتفت به:
ـ ولكن من أنت يا سيدي؟

فرفع طرف قبعته وأزاح اللثام عن وجهه، فعرفت فيه ذلك الشبح الجهنمي الذي ظهر فجأة في لحظة الوصال فطعن حبيبها بالخنجر ثم ألقى بنفسه في النهر، فتراجعت إلى الوراء ورفعت يديها كأنما تذود عن نفسها شراً داهما وقالت: «أهو أنت؟».

ثم سقطت على الأرض خائرة القوى وغمغمت:

ـ الآن حل دوري، فاقتلني أنا الأخرى.

وتريثت تنتظر المصير الذي لم تشك فيه، ولكنه قال بعد برهة:
ـ أتفزعين مني؟
ـ أتسخر مني يا سيدي؟ لقد تراءيت لي في كل مكان، وجعلت تتعقبني منذ شهور وشهور.. وبجرائر فعلتك نزلت بي الكوارث، ودفعت بي إلى الموت بعد أن حرمتني لذة الحياة حين قتلت فيبوس الجميل.

وانطلقت تنشج وتصرخ: «من أنت؟ ولماذا تعذبني وتضطهدني؟».
ـ لأني أحبك.

فذهلت الفتاة، ووقفت الدموع في مآقيها حائرة، وهي لا تصدق أذنيها، فهل يمكن أن يكون الحب وهو أجمل وأرق ما في الحياة، سبيلا لكل هذا العذاب والشر؟

ولم يمهلها الأسقف، بل قال لها:
ـ لقد جئت أسمع اعترافك.. ولكنك ستسمعين الآن اعترافي. وسأفضي إليك بما ظل مكنوناً في أعماق صدري فلم أصارح به أحداً حتى نفسي. لقد كنت يا فتاة من أسعد الناس قبل أن أراك.

فتأوهت المسكينة وقالت: «وأنا أيضاً.. ما كان أسعدني».

ـ رويدك، ولا تقاطعيني. لقد كنت سعيداً كالملائكة، طاهراً كالأطفال، لا يندى جبيني لمعصية ولا يلين جانبي لغمزة. وكان كل همي في الحياة محصوراً في العلم والفن، واستطعت منذ يفاعتي أن أتغلب على نزوات الهوى والعواصف التي تعصف بكيان الشبان فلا يستطيعون لها دفعاً ولا لجماحها ردعاً. وكانت الصلاة ملاذي، وكان الصوم والنسك عياذي، وكان الدرس والتعمق في الاطلاع موئلي، فمرت مرحلة الشباب الباكر في سلام، ولم تعلق بصحيفتي شائبة من أدران الأثم والرذائل. وبذلك قهرت إبليس في الجولة الأولى، مع ما كان يحاربني به من وسائل جهنمية، فيزين لعيني النساء اللواتي يحضرن

للصلاة في الكنيسة، أو أمر بهن في الطرقات، أو يطوف خيالهن بمخيلتي وأنا بين جدران صومعتي الأربعة.

وعندئذ تنفس الأسقف نفساً عميقاً، ثم استطرد:

ـ وذات يوم قهرني الملعون بعد أن ظننت أن عهد النزوات والأهواء الجامحة قد مضى وانقضى. أطللت من نافذة صومعتي على ساحة الاعتصاب، لقدر قدره الله سبحانه في سابق علمه، فرأيت ما لم تره عين بشر، وما لم يخلق إلا لاجتلائه البصر.. أبصرت في تلك الساحة انسية في مقتبل العمر ترقص على توقيع دف صغير رفعته فوق رأسها. وكأنما كانت هذه الراقصة تمثالا للجمال الأسمى، اجتمعت فيه كل مزايا الحسن والرشاقة. فعيناها واسعتان تفيضان سحراً وصفاء، ولمتها السوداء تأتلق في شعاع الشمس. وغلالتها الهفهافة المزركشة بالأزاهير كأنها قطعة من روض الجنان، أما قدماها فلا تراهما العين لشدة انطلاقهما في حركة دائبة كأنها اعصار. وبهت، فقد بهرني منظرها حتى لقد شلت جوارحي وانتشت جوانحي فلم أستطع عنها حولا. وعبثاً رحت أذكر نفسي أن الشيطان فاجر ماكر، وأن هذا الجمال الذي أراه لا يستمد اشراقه من نور الله، بل هو ومضة من نار الجحيم التي اتخذها الشيطان له مستقراً، وخرج يتصيد لها وقوداً من عباد الله، فأتقاهم هو أحبهم إلى إبليس أن يتخذ منه أسيراً يدخله مملكته و يوقد به نار جهنم!. وأيد هذه المخاطرة انني رأيت مع تلك الراقصة الصغيرة عنزة. وكنت أعلم من قراءتي في كتب الأقدمين أن العنزة من أدوات السحرة، الذين يعقدون المعاهدات مع الشياطين و يستعينون بهم على الايقاع بعباد الله الصالحين، فقر في نفسي أنك احبولة مدها الشيطان ليتصيدني كما طالما تصيد الصالحين من عباد الله المؤمنين. ورسخت في نفسي هذه العقيدة، بل أني يا فتاة ما برحت على هذا الرأي، فكل يوم أزداد به اقتناعاً. فأي شيطان يبلغ بفعله وسحره فعلك في نفسي وسحرك؟ وأي دوامة من صنيعة إبليس تغرق الحس والعقل كما يغرقني انثناء جسمك اللدن ودوران بدنك الرخص، فكل حركة فيك

فتنة لي، وكل انملة من بدنك عذاب لي. وهكذا قضي الأمر وألفيت نفسي إنساناً منوماً مغلوباً على أمري في تيار نشوتك القاتلة. ثم سمعتك يوماً تغنين، فكان صوتك أعمق في نفسي أثراً من سحر رقصك وإغراء تثنيك. وبذلك تم خسراني، وغرقت في حمأة الشهوة، وخرجت مطروداً من ملكوت الله.

وتأوه الأسقف عندئذ عن كبد مقروح ثم أنشأ يقول:

ــ وأحسست بهدي عقلي أن ألسنة نار جهنم قد أحدقت بي، فصرخت من أعماق الهاوية أدعو الله أن يدركني ولا يتخلى عني. ورحت أفتح الكتب المقدسة كي أغرق فيها متاعب عقلي المضطرب وزوابع نفسي الثائرة.

ثم حدجها الأسقف بنظرة ملتهبة كمن يهم بافتراسها، وقال:

ــ أتعلمين ماذا كنت أرى في صفحات الكتاب المقدس؟

ــ ....

ــ تسكتين؟ أنت تعلمين ماذا كنت أرى! كنت أنت التي أرى، وقد طغت كل ثنية فيك على أحرف كلمات الله، وغطى كل نتوء على كل آية من آيات حكمته. وطمس ظلك وأنت ترقصين كل نور ينبعث من وحيه والهامه، ولما كنت أرفع صوتي مستعيداً من الذاكرة شيئاً من آيات كتاب الله، كان صوت غنائك يا فتاة يطغى في مسامعي على صوتي، فقلت في نفسي: إبحث عنها، وأراها عن كثب، فلا بد أنها ككل إنسان تشوبها شائبة تنتقص من جمالها الذي يمثله الوهم لي كاملا لا يعرف النقصان. ورأيتك عن كثب، وتعقبتك وأنت ترقصين في الشوارع في الصبح تارة وفي العصر تارة، رأيتك في وهج الضحى وفي ذهب الأصيل فلم أذمم لك ضوءاً ولا ظلا، وحمدت فيك كل ما رأت عيني، وكل ما سمعت أذني، وكل ما انطبع في قلبي من صورتك ساكنة وثائرة، وواقفة وسائرة، وجادة ولاعبة، وضاحكة وغاضبة. لم أجد فيك نقصاً يعاب، ولا كلفا يخدش هذا البهاء، وكأنما كان ذلك الامتحان باباً جديداً من

أبواب العنة، وسبباً آخر من أسباب المحنة، فأصبحت مدمناً لا يهدأ لي بال حتى أراك، وبذلك صرت ترينني كالشبح الذي يطاردك.

ــ ولكنك كنت تخيفني بنظرات حقدك.

ــ وكيف لا أحقد عليك أيتها الغجرية بعد أن تحققت من سحرك وخبرته في نفسي، وقررت أخيراً أن أختطفك، وأوشكت أن أضع يدي عليك، لولا ذلك الضابط الذي انشقت عنه الأرض كي ينتزعك مني.

وسكت الأسقف بعد ذلك لحظة، وقد زاغت عيناه، ثم قال:

ــ وأسقط في يدي، فلم يعد لي غنى عنك، كان لا بد أن أصنع شيئاً يقطع ما بيني وبينك ما دمت لا أستطيع أن أصل ما بيني وبينك. فدبرت مع صديقي النائب العام لدى المحكمة الكنسية أم محاكمتك بتهمة السحر والشعوذة، كي تكوني في السجن تحت يدي، و يكون في الوقت نفسه بامكاني أن أوقف إجراءات القضية في أي لحظة، لأنها قضية دينية. ولكن كان مكتوباً في لوح القضاء أن يحبط تدبيري، و يتجه بي تيار الحوادث اتجاهاً آخر، فقد اعترض ذلك الضابط طريقي مرة أخرى.. فانتهى على الوجه الذي تعلمين.

وسكت الأسقف، فساد صمت القبور مرة أخرى، إلى أن شقت حجابه آهة أطلقتها الفتاة قائلة: «لهفي عليك يا فيبوس».

فأنشب الأسقف أظافره في ذراعها وهزها صائحاً:

ــ صه! لا تذكري هذا الاسم على لسانك، فانه هو الذي أضاعنا كلينا. أتبكين؟ قد علمت أنك تعانين العذاب، وقد علمت أن ظلمة هذا القبو تطمس بصرك. ولكن عزاءك أن وميضاً من نور الذكريات السعيدة يلوح في أعماق نفسك، أما أنا، فواهاً لي! إن السجن الذي في نفسي أحلك من هذا السجن ظلمة، وهناك الوحشة وصرير الأسنان.

وتمهل قليلا ثم أطلق ذراعها وقال بأناة:

ــ آه لو تعلمين كم برحني العذاب بعد تلك الليلة، لقد حضرت

محاكمتك، ورأيت بعيني رأسي عذابك وأنت مقيدة في ذلك المقعد الرهيب، ورأيت ماكوي الحديد المحماة تنطبع على هذه الساق التي طالما ذابت نفسي حسرات ووددت لو أشتري لثمة منها بخير سنوات عمري. فلما سمعتك تصرخين، غاصت أظافري في لحم صدري حتى تمزق.

ثم أماط رداءه عن صدره، فاذا هو ممزق دام، فصرخت الفتاة مروعة لما رأت، فغطى عندئذ صدره وقال:

ــ وماذاك؟ لقد نهشت سباع الغيرة وعقارب الأثم وأفاعي الشهوة شغاف قلبي بأبشع وأقسى من هذا الذي رأيت بمراحل. إلا رحمة بي يا بنية، فلئن زين لك الوهم أنك أشقى من حملت الأرض على وجهها، فانني لأشقى منك لو تعلمين مرات ومرات. أو تدرين يا فتاة ما الشقاء بمعنى كلمة الشقاء؟ إنه أن يكون الانسان إنساناً ولا إنسان، ورجلا مكفوفاً عن مصائر الرجال، فيحب ولا ينال، ثم يخسر دينه في سبيل لذة الوصال، فلا يلقى بعد خسرانه منها إلا الصدود والنكال، ثم يراها بعد ذلك وهي معبودته المقدسة، تضع كنز حسنها طواعية تحت قدمي وحش ليفترسه، بل ليلوثه و يدنسه، وهي قريرة العين راضية الفؤاد. فأي عذاب لذلك العابد الذي كفر بالاله المعبود، ليخسر بعد ذلك دينه ودنياه، و يتلظى بعذاب في حياته وأخراه!

وجثا بعد ذلك على ركبتيه أمامها، والتمس بجبينه قدميها ليعفر بالتراب الذي تدوس عليه هامته وهو يصرخ:

ــ رحمة بي يا بنية، وارفعي عني مقتك وعذابك.

وسكتت الفتاة لحظة طو يلة ثم تأوهت بصوت ضعيف:

ــ لهفي عليك يا فيبوس!

فصرخ الأسقف وهو راكع تحت قدميها:

ــ ألا ترحمين عذابي؟ إن هذا الاسم يمزق شغاف فؤادي، لقد خسرت روحي وحياتي الأخرى من أجلك. فلماذا تشقين وأشقى؟ هيا

نحيا معاً وننعم بالسعادة بعد الذي عانيناه من عذاب شديد.

وصمتت الفتاة لا تحير جواباً فعاد يقول:

ـ كلمة واحدة تقولينها، فأخرج بك الآن من هنا، وفي فجاج الأرض متسع في فضاء الله، حيث الهواء والشمس والزهر والحب.

فأطلقت الفتاة ضحكة كأنها صرخة وصاحت به: «انظر يديك اللتين ترفعهما إلي متوسلا. ألا ترى عليهما أثر الدماء؟».

ـ أتهزئين بي، أم بالهوى. أم بالموقف النكد؟ بل بنفسك تهزئين. فغداً يا فتاة تشنقين. لقد نصبوا لك المشنقة حيث كنت ترقصين.

وهجم عليها، كمن يريد أن يضمها إليه عنوة وقال:

ـ بل تعالي معي، ولو كرهتني، فلا ينبغي أن تموتي.

فتراجعت ورشقته بنظرة ثاقبة وقالت: «وفيبوس يا أبتاه؟».

فصاح الأسقف وقد كاد يجن: «أصخرة أنت لا يحركها شيء؟».

ـ فيبوس يا أبي، ماذا حدث له؟

ـ مات!

ـ مات؟ وفيم حياتي إذن؟

ـ لقد مزق خنجري قلبه الداعر، كما مزق بقسوته قلبي.

وعندئذ هجمت عليه أزميرالدا كما تنقض لبؤة على قاتل أشبالها:

ـ أغرب عن وجهي أيها السفاح! اذهب وعش لشقائك وعذابك، واتركني لراحة الموت. وليكن دم فيبوس ودمي على رأسك الدنس! ها ها ها! أتريدني لنفسك بعد أن قتلت فيبوس؟

ثم سقطت مغشياً عليها.

ساعة الفصل

ولكن فيبوس لم يمت. فأمثاله من الرجال تحبوهم الطبيعة بحيوية خارقة، وتدللهم تدليلا لا يعرف له سبب. فان التقارير الطبية كانت تقطع بنه ميت لا محالة. بيد أن بضعة أسابيع من الراحة كانت كافية لالتئام جرحه، وكانت العدالة في تلك الأيام لا تدقق كثيراً في تحديد الجرائم، كما أنه شخصياً لم يكن توقاً إلى افتضاح صلته بهذه القاتلة. ذلك أنه اعتقد أنها هي التي قتلته أو شرعت في قتله، ثم أنه مما يشين أبناء البيوتات أن تلوك الأفواه أسماءهم في مثل تلك القضايا الفاضحة.

وهكذا نفض فيبوس الجميل أزميرالدا من ذهنه، وأحس الفراغ فعاد إلى خطيبته يخطب ودها بعد تلك الغيبة الطويلة التي استغرقها مرضه، وكانت خطيبته لا تعلم أنه مريض، لتحرية كتمان الموضوع، فزعم أنه كان منتدباً خارج باريس.

وذات صباح من أوائل شهر مايو توجه لزيارة فلور دي ليس، وشعر بحركة غير عادية في ساحة الاعتصاب، بيد أنه لم يلق بالا للأمر، فما أكثر المواكب الدينية في ذلك الميدان. ولم يلبث أن وجد في بشاشة فلور دي ليس وترحيبها ما أنساه كل ما عداها. وكانت وحدها في البيت مع أمها، بيد أن الفتاة أشارت بعد قليل إلى الميدان عبر الشرفة وقالت:

ــ يبدو أنهم سيشنقون اليوم ساحرة أمام باب الكنيسة بعد أن تكفر هناك عن آثامها ومعاصيها.

ــ وما اسم هذه الساحرة؟

ــ لا أعلم.

ـ ولأي ذنب سيشنقونها؟
ـ لا أدري. ولكن دعنا من هذا وقل لي بربك: هل أحببت من قبلي؟
ـ أقسم لك يا ملاكي أنني لم أحبب من قبلك امرأة أبداً..!!

وكان هو نفسه يعتقد في صدقه، لأنه كان من ذوي الطبائع الهوائية التي تعيش في اللحظة الحاضرة، ولا تكترث للماضي ولا تتذكره.

وفي هذه اللحظة دقت ساعة نوتردام اثنتي عشرة دقة. وكان الجمع الذي يملأ رحبة الميدان قد بلغ الألوف، فسرت فيهم همهمة سرور، لأن هذه هي اللحظة التي حددت من قبل لابتداء ساعة الفصل.

وفي هذه اللحظة أيضاً كان فيبوس قد أطبق على عنق فلور دي ليس بشفتيه يمطره بقبلات محمومة، فتأود عود الفتاة واحمر خداها وقالت:
ـ أوه. دعني بربك يا فيبوس، فقد تدخل والدتي في أي لحظة! وهيا نتفرج على تنفيذ حكم الاعدام، فان هذا الصياح يؤذن بابتدائه.

وأقبلت على الميدان عربة مكشوفة سوداء جلست فيها الفتاة، وقد شد وثاق يديها وراء ظهرها، ولا يسترها إلا غلالة رقيقة. وشعرها الأسود الطويل يتموج طليقاً وراء ظهرها العاري.

وعرفتها فلور دي ليس فصاحت:
ـ يا يسوع! أنظر يا ابن العم الجميل، إنها الفتاة الغجرية صاحبة العنزة.

ونظر فيبوس واكفهر لونه وقال متلعثماً:
ـ أي فتاة وأي عنزة؟
ـ ألا تذكرها؟
ـ لا تدخل. بل قف لتشاهد نهايتها التي تستحقها عن جدارة.

فلم يجد فيبوس مناصاً من البقاء.

وكانت الفتاة هادئة الاسارير، غير مكترثة بشيء، فاكتسبت من هدوئها جمالا فائقاً مس قلوب الناس جميعاً.

ووقفت المركبة المكشوفة أمام باب الكنيسة الكبيرة فساد الناس صمت مطبق، واشرأبت أعناقهم. ثم انفتح الباب، وترامى إلى أسماع الناس صوت المنشدين من داخلها يرتلون صلاة الغفران.

ونظرت الفتاة فرأت جوف الكنيسة معتماً ــ وكانت قد ودعت ظلمة السجن إلى نور الشمس منذ قليل ــ فأوجست، بيد أنها تماسكت.

وتولى كبير الجلادين فك قيودها، وأمرها أن تنزل فنزلت، ثم شرعت تصعد سلم الكنيسة الكبير حافية القدمين، ومن ورائها عنزتها تملأ الجو بثغائها.

وعندما وقفت بباب الكنيسة انقطع الترتيل، واقترب منها قسيس فوضع بين يديها شمعة موقدة وزنها رطلان كنص الحكم.

ثم خرج من عتمة الكنيسة إلى نور الشمس أمام الباب موكب حافل من القسيسين استرعوا انتباه الناس بثيابهم القاتمة. أما هي فلم يستلفت نظرها إلا كبيرهم الذي سار في مقدمتهم. فانها ما أن رأته حتى سرت في أوصالها رجفة عنيفة.

لقد كان هو الأسقف كلود فرولو.

وأومأ الأسقف إلى حراسها فارتدوا حاسرين، وتركوها وعنزتها في أعلى الكنيسة. وفطنت إلى أن عيني الأسقف كانتا ترمقانها، في هذا الموقف الرهيب، بنظرات تفيض حباً ورغبة وغلا وحفيظة وغيرة.

ودنا منها الأسقف ثم قال بصوت سمعه الجميع:

ــ أيتها الغجرية. عسى أن تكوني قد تضرعت إلى المولى سبحانه كي يفتح لك باب رحمته و يغفر لك ما ارتكبت من ذنوب.

ثم مال فوقها كأنما ليتلقى جوابها وهمس في أذنها:

ـ ما زال في الوقت متسع لانقاذك، أتكونين لي؟

فرشقته بنظرة صارمة وقالت:

ـ أغرب عن وجهي، وإلا فضحتك على الملأ.

فابتسم ابتسامة صفراء كالحة وقال:

ـ ومن ذا الذي يصدقك أيتها التعسة؟ أتكونين لي؟ هذه فرصتك الأخيرة!

ـ أجبني أولا، أين فيبوس؟

ـ قلت لك مات.

ـ إذن أموت كما مات.

فكز على أسنانه وقال مغيظاً:

ـ إذن تموتين، حتى لا ينالك غيري.

ثم استدبرها ودخل الكنيسة مطرقاً، وظلت هي حيث كانت تنتظر مصيرها. فأشار أحد القسوس إلى الجلاد إيذاناً بأن مهمة الأسقف قد انتهت، فانقض الجلاد عليها وشد وثاقها وراء ظهرها.

وفي هذه اللحظة استدارت لتهبط الدرج، فأصبح وجهها إلى شرفة بيت الكونتس، و بذلك وقع بصرها على فيبوس واقفاً مع خطيبته.

و بدا لعينيها كما كان يبدو لها دائماً في اليقظة والخيال، فارع الطول، وجعل يركض بين أضلاعها، واندفع الدم إلى وجهها، وكأنما انبثقت في بدنها الواهن عشرة أرواح.

أسروراً محضاً ما كان بها؟

إنه سرور ولا مراء. ولكنه لم يكن سروراً محضاً، بل خالطه استنكار عجيب. استنكار لكذب القاضي. وكذب الاسقف. فهذا وفي ثوبه العسكري الأنيق مشرقاً صحيحاً معافى.

ولم تلك نفسها، فهتفت بأعلى صوتها:

ـ فيبوس! فيبوس!

وهمت دون أن تدري أن تمد نحوه ذراعيها، لنداء، أو توسل، أو عناق..

ولكن وا أسفاه! لقد كان ذراعاها موثقين من خلاف.

ولا نرتاب في أن الضابط الوسيم سمع النداء، فقد مال إلى الأمام، وهمس إلى صاحبته بشيء، ثم دخل الاثنان.

وجن جنون أزميرالدا. أليست جريمتها التي تشنق عليها أنها قتلت الكابتن فيبوس دي شاتوبير؟ فكيف يتفق ذلك وها هو ذا أمام عينيها حي يرزق؟

لقد لقيت في جريرة هذه التهمة ما ينوء به أشد الرجال. وكان عزاؤها بعد ما لقيت أنها ستسلم الروح لتلقاه حيث سبقها في عالم الموتى.

أما وهو حي: فلا طعم للموت، وما أعذب الحياة...

وسقطت مغشياً عليها.

وأسرع النائب العام لدى المحكمة الكنسية، وهو الأستاذ جاك شارموني فأمر بحملها إلى العربة كي تستأنف إجراءات التنفيذ.

ولم يكن أحد ممن احتشدوا في الميدان، وفي الشرفات المحيطة به، قد نقل بصره من محور الالتفات، وهي الفتاة التي ينتظرون شنقها في لذة تعدل لذتهم من قبل بمشاهدتها راقصة ومغنية، ولهذا لم يفطنوا إلى تمثال كان جاثماً بين تماثيل واجهة الكنيسة، وهو يحدق بعينه الواحدة تحديقاً فاحصاً، كي يشهد ساعة الفصل من تلك المأساة.

لم يفطن إلى وجوده أحد، ولو أنهم فطنوا لما عرفوه، فهو ببشاعته وجموده عن الحركة أحرى بأن يكون تمثالا من تلك التهاويل الصخرية لا بشراً سوياً.

ورأى كازيمودو الفتاة وهي تسقط على الأرض مغشياً عليها، ثم رأى الجلاد يحملها مع معاونيه كي يضعها في عربة الاعدام.

وكان إلى جانب الأحدب حبل طويل غليظ، هو حبل الناقوس الكبير الذي طالما تعلق به وتأرجح في الهواء مع دقات ماري. فتعلق عندئذ بهذا الحبل، ولفه حول معصميه، ثم راح يهبط مستعيناً به فوق واجهة الكنيسة في خفة أشبه بانسياب قطرة من المطر فوق صفحة من البللور الصقيل.

وما يدري الجلادون إلا وقد هبط عليهم هذا الوحش من السماء، فركب أكتافهم وصرع ثلاثتهم بضربتين قاضيتين من قبضته الهائلة، ثم حمل الغجرية كأنه يحمل دمية محشوة بالريش، وبوثبة واحدة كان قد دخل بها من باب الكنيسة، وهو يصيح:

ـ في حمى بيت الله!

وقد تم هذا كله في سرعة عجيبة، كأنه عاصفة من البرق الخاطف أو الصواعق المنقضة، فقد دخل الناس وبوغتوا فسمروا في مكانهم. ثم لذ للجماهير ذلك العنصر المفاجىء في الملهاة التي جاءوا يتسلون بها، فهتفوا مصفقين:

ـ مرحى مرحى! في حمى بيت الله!

وأفاقت أزميرالدا من غشيتها على دوي الشعب وهتافه، ففتحت عينيها ورأت وجه كازيمودو لصق وجهها، فأغمضتهما ثانية كأنما تفضل ذلك على رؤية وجهه الدميم.

أما الجلاد وأعوانه فقد وقفوا مشدوهين. ذلك أن قانون ذلك العصر كان يجعل من الكنائس الكبرى التي يقوم عليها أساقفة حمى محرماً يستجير به الفارون من وجه العدالة، فلا يكون لأي سلطان في الدنيا عليهم سبيل، وكانت كنيسة نوتردام من أهم تلك الكنائس، فأسقط في يدهم.

أما كازيمودو فوقف من داخل الباب المفتوح وقد ثبت ساقيه و باعد بينهما فكأنهما عمودان متعانقان من أعمدة الكنيسة الرخامية وكان رأسه الضخم مرفوعاً فكأنه في عفرته أسد هصور، وقد رفع ذراعيه إلى أعلى بالفتاة المشدودة الوثاق كي يراها الناس، وكأنها ريشة أو ثوب متهدل لا يعجزه حمله على هذه الصورة. فطغت روعته وهو في ذلك الموقف على دمامته النموذجية.

وكان رائعاً جباراً، ولكنه كان رفيقاً بها حتى لا تذعر ولا يصيبها من قوته الهائلة سوء. فقد كان يعلم علم اليقين أن هذا الكنز الثمين هش رقيق.

وخيل إلى الناس لفرط رقته أنه يخشى عليها من لفح أنفاسه، فقد أحاطها بذراعيه وحملها فوق صدره الضخم، وهو يحوطها بالحنان والرعاية، فكأنه أم رؤوم تضم طفلتها إلى صدرها كي تلقمها ثديها.

ورأوه بعد ذلك يرمقها بعينه الواحدة بنظرات تكاد تسيل رقة وتقطر حناناً واشفاقاً وعتاباً. ثم رفع عنها بصره، فرأى الناس في عينه بريقاً خاطفاً من السعادة والحبور والزهو.

رأى الناس هذا كله، وكانوا أخلاطاً من الرجال والنساء، ومن السفلة والاخيار، ومن الكبار والصغار، ولكن شعورهم بما رأوا كان واحداً: فبكت النساء وضحكن في آن واحد، وألهب الرجال أكفهم بالتصفيق وشقوا حناجرهم بالهتاف.

إن هذا اللقيط الذي طالما نبذوه واحتقروه وكرهوا دمامته، كان في هذه اللحظة جميلا جمال الروعة والقوة والنبل واقدام.

وشعر بجلال الموقف، فنظر إليهم نظرة المزهو بتفوقه عليهم، فقد انتصر وانتقم بفعلته هذه من احتقارهم وكراهيتهم، وانتقم أيضاً من كل ما يمثل ذلك المجتمع القاسي من قوانين وعدالة، أليس قد انتزع



وهبط أحدب نوتردام على الجلادين كالوحش فصرع ثلاثتهم
بضربتين قاضيتين ثم حمل الغجرية وفر بها إلى داخل الكنيسة

فريسة المحكمة وطريدة القضاء ـ بين سمع الشرطة وبصرهم ـ من أيدي الجلادين، وهم ينظرون ولا يستطيعون شيئاً؟

وبعد أن استمرأ طعم انتصاره دقائق معدودات، جعل يجري في مشيته العرجاء إلى داخل الكنيسة، وحمله الثمين فوق صدره.

وأسف الناس لاختفاء هذا البطل عن أنظارهم، بيد أن أسفهم لم يصل إلا دقائق معدودات، ثم سمعوا صوته وهو يطل عليهم من قمة الكنيسة وأسيرته بين ذراعيه، وهو يهتف هتافاً كهزيم الرعد.

ـ في حمى بيت الله!

في حمى بيت الله

ونعود إلى الأسقف كلود فرولو، فترى أين كان حين تمت هذه المعجزة على يد كازيمودو، فأفلتت تلك الفريسة من الحبالة التي نصبها لها؟

إنه كان قد خرج من أحد أبواب الكنيسة الخلفية، حتى لا يرى خاتمة المرأة التي أحبها أكثر مما أحب الدنيا والآخرة...

وجعل يضرب في الشوارع، ممعناً وهو لا يكاد يرى موطىء قدميه لشدة ما كان يعصف في رأسه من دوي هائل وما يتدفق في شرايينه من دم فوار بحرارة الحمى.

وطرقت أذنيه وهو في هذه الحالة أصوات هتاف الجماهير، فسبق إلى ظنه أن الفتاة قد لقيت مصيرها المحتوم، فزفر زفرة حارة، وصم أذنيه بسبابتيه وأسرع الخطى. وانطلق يترنح في مشيته و يتخبط، حتى ألقى نفسه في أرباض باريس، وسط الحقول. فهدأ قليلا، وتمهل حتى أفرخ روعه.

وحينئذ بدأت خواطره تتضح، وتمثلت أمام عينيه تلك التحفة البشرية التي هو يها فهوت به وهوى بها، وكانت قضاءه وكان قضاءها.

وارتعدت فرائصه وهو يتمثلها كزنابق الوادي طهراً ونقاء. ترى كيف طاوع ذلك التعس فيبوس قلبه على أن يدنو منها بدنس، وهي التي كانت نظرة واحدة منها حسبه ليكون أسعد العالمين في هذه الحياة، وفي الحياة الأخرى أيضاً؟

وصور له الوهم هذه الاقحوانة الندية وقد التهمتها أعين الغوغاء المحتشدين في ساحة الاعتصاب، فجن جنونه وراح يضرب صدره بكفيه ونشج بالبكاء.

وزين له الخيال أي هناءة كان يرفل في بحبوحتها، لو لم يكتب له في سجل المقادير أن يتقيد بهذا الطيلسان الأسود الذي يحتم عليه تبتل الرهبانية، ولو لم يتم الله عليه عذابه فتعترض طريقه هذه الجنية، ولو لم تشأ المقادير القاسية أن تنشق الأرض عن فيبوس هذا..

وأذاب قلبه عندئذ اليأس والحنين، فتوالت زفراته، ثم استبطن أغوار نفسه فقرأ آيات الحقد والضغينة، ورأى أي جراح غائرة تركتها في حشاشته هذه الفتاة. فأخذته العزة، وندب كبرياءه، واستراح لما جنت يداه.

ولم يشعر بنفسه إلا وهو موغل بين المزارع، وقد جنحت الشمس إلى المغيب، وقد تشوش شعره، واختلط تفكيره، فعاد أدراجه إلى كنيسته وقد أخذت رياح المساء تلطف حرارة جبينه المحموم.

ونعود إلى كنيسة نوتردام، ذلك الحمى الذي يلوذ به المجرمون فلا تنالهم يد ولو كانت يد الملك، ولا تقوى على انتزاعهم إلا سلطة البرلمان بعد اجراءات خاصة.

ولما كانت نوتردام ملاذاً شرعياً، فقد خصصت فيها حجرة لمن يلوذ بها من الهاربين من يد العدالة، وهذه الصومعة قائمة فوق سطح الكنيسة بين الأبراج. وفي هذه الحجرة وضع كازيمودو أزميرالدا من بين ذراعيه، وحل وثاقها، ولبث إلى جوارها ينتظر أن تفتح عينيها. فلما فتحتهما رأت باريس بأسرها تحت أقدامها، ومن فوقها سحنة كازيمودو البشعة، فتذكرت ما حدث لها من المفاجآت العجيبة، فاعتدلت فوق الأريكة التي كان قد أضجعها فوقها ونظرت إليه نظرة غريبة فيها جفاء وعتب!

ـ لماذا نجيتني؟

فتحير بماذا يجيب وهو لم يسمع ما قالت، ولكنها لم تكن تدري أنه أصم، فكررت عليه سؤالها، فلم يزد على أن أطرق وانصرف، فعجبت لأمره، ولبثت وحدها تحاول أن ترتب خواطرها المتناقضة وتميز بين الحقيقة منها والخيال.

ولم يلبث كازيمودو طو يلا حتى عاد إليها، فوضع بين يديها حزمة كبيرة، ففتحتها لتجدها عامرة بثياب الصدقة التي تأتي بها المحسنات إلى الكنيسة لتوزيعها في المناسبات على المحتاجات، فتذكرت عندئذ أنها تكاد أن تكون مجردة من الثياب، فتضرم وجهها خجلا، وأدرك معنى هذا الخجل، فأسرع بالخروج.

وتناولت أزميرالدا الحزمة فانتقت منها ثو باً ارتدته، وإذا الأحدب يدخل عليها وقد حمل حشية وسلة. فبسط الحشية فوق الأريكة، ثم قدم السلة بين يديها، فاذا فيها قدر به ماء، وخبز، وشيء من الصعام وأشار إلى السلة وقال بصوته المرتفع:

ـ كلي أولا...

ثم أشار إلى الحشية وقال:

ـ ثم نامي...

وكانت الحشية حشيته التي يفترشها والطعام قوت يومه.

ورفعت أزميرالدا وجهها على نية الابتسام وتقديم الشكر، ولكن لسانها عصاها، والابتسامة ماتت على شفتيها، لأن هذا الشقي كان من الدمامة بحيث لا تقدر النفس على التغاضي عن قبح صورته، فخجلت من نفسها وطأطأت رأسها، فصاح:

ـ أراني أرعبتك، فاني أعلم مبلغ دمامتي، ولكن كذلك يراني الخالق، ولكن لا عليك، واني أعفيك من التطلع إلى وجهي. وبحسبك أن تسمعي صوتي، لتعرفي ما ينبغي أن تفعليه. الزمي هذه الحجرة ما

طال النهار، فاذا جن الليل فاخرجي وتجولي فوق سطح الكنيسة ما شئت. ولكني أحذرك من مغادرة هذا المبنى، وإلا وضعوا يدهم عليك وأعدموك، فيكون في ذلك هلاكي.

وهمت الفتاة أن تحمل نفسها على النظر إليه، بيد أنه أسرع بالخروج وتركها وحيدة بين طعامها وفراشها، فأطرقت ساعة تفكر في حنانه ورقته على ما فيه من دمامة وخشونة. وكيف حاول أن يخطفها، ثم كيف سقته جرعة الماء وهو على آلة العذاب، ثم ها هو أخيراً ينقذها من بين أنياب الموت.

وقامت تتفرج على مسكنها الجديد. إنه حجرة ضيقة، بها كوة تطل على ساحة الاعتصاب، وليس فيها إلا هذه الأريكة الخشبية التي بسط كازيمودو فوقها حشيته، فعادت إلى الجلوس، ودفنت رأسها بين يديها، لكنها لم تلبث أن انتفضت وصرخت مذعورة، لأن شيئاً ناعم الملمس داعب ساقيها.

ولكنها سرعان ما افتر ثغرها عن ابتسامة وضاءة. فقد كان هذا الشيء الناعم هو جالي التي تبعت سيدتها بعد أن اختطفها كازيمودو.

وضمت أزميرالدا رأس جالي إلى صدرها و بللته بدموع الفرح.

و باتت أزميرالدا ليلتها في تلك الحجرة، وأدهشها ألا تفتح عينها إلا بعد أن لذعتها أشعة الشمس، فقد طال عهدها بالأرق، حتى كادت تنسى عادة النوم.

ولم تكن أشعة الشمس كل ما في الغرفة، فقد كان هناك أيضاً وجه كازيمودو القبيح. فأسرعت باغماض عينيها، ولكن عبثاً فعلت، فقد خيل إليها أنها تراه وهي مغمضة العنين.

وزاد الطين بلة أن صافح صوته مسمعها قائلا:

ــ لا تخافي. فاني صديقك، ولم آت إلا للاطمئنان على راحتك، فهل

يزعجك كثيراً أن أملأ عنين منك وأنت مغمضة العينين لا ترين وجهي لا حرج عليك، فاني منصرف.

ففتحت عينيها لتجده قد خرج فعلا، فأطلت من الباب، فاذا به رابض إلى جواره في استكانة الذليل. فبدرته وهي تغالب تقززها:

ــ أدخل.

ولم يسمعها طبعاً ولكن خيل له سوء الظن على ضوء ما تعوده أنها تقول له ابتعد، فشرع يبتعد عن المكان وهو مطرق. فصاحت متعجبة:

ــ قلت لك اقترب.

فزادت دهشتها لامعانه في الابتعاد، فجرت وراءه وقبضت على ذراعه، فسرت للمسها في جسده رعدة، ورفع إليها عينيه في انكسار، فرآها تجذبه إليها، وطفح وجهه بالبشر العظيم. بيد أنه رفض أن يصحبها إلى الحجرة، وظل واقفاً في سدة الباب وهو يقول:

ــ هذا لا يجوز، وأنى للبومة أن تدخل عش اليمام؟

فجلست أزميرالدا وجعلت تنظر إليه في عجب وهي صامتة، وهو يخالسها النظر على استحياء لما يعلمه من تلك القسمة الجائرة! فهي تنظر إلى أقبح وجه، وهو ينظر إلى أجمل طلعة.

ودام الصمت برهة، إلى أن سألها متعجباً:

ــ هل كنت تطلبين مني أن أدخل؟

فأومأت برأسها أن نعم، فتردد لحظة ثم قال:

ــ يؤسفني أنني لم أسمعك. فأنا في الواقع.. أصم.

فشهقت أزميرالدا، فابتسم مستسلماً وقال:

ــ لم يكن ينقصني في نظرك إلا هذا كي تتم أوصاف بشاعتي ولكن هكذا خلقني الله. وأنا في الواقع لم أضق يوماً بقبح منظري إلا عندما رأيت جمالك الباهر. فأخذتني الحسرة على نفسي.

وسكتت متحيرة لا تدري كيف تجيبه، ولو أجابته ما سمعها فأدرك سبب حيرتها، وابتسم قائلا:

ـ أجل أني أصم، ولكن في وسعك أن تتفاهمي معي بالاشارة. وأستطيع أن أفهم الكلام أيضاً إذا تكلمت ببطء، من حركات الشفاه.

فابتسمت وقالت:

ـ إذن بين لي لماذا جازفت بانقاذي؟

ـ تسألينني لماذا نجيتك؟ وهل نسيت أنك جزيتني على محاولة اختطافك، بجرعة ماء بارد وأنا مشدود إلى عجلة التعذيب؟ إنني دميم ولكني لا أنسى المعروف.

وخشى أن تخونه دموعه، فنهض منصرفاً، فاستبقته، فقال:

ـ كلا. أكره تنغيصك وتعكير صفوك بمنظري، وأنت تغالبين اشمئزازك رحمة بي. خذي هذه الصفارة لتنفخي فيها كلما رغبت في استدعائي.

وتوالت الأيام على هذا النحو الرتيب، حتى هدأت نفس أزميرالدا، وبدأت جراح نفسها تندمل. فوجدت بدور الأمل في سريرتها تربة صالحة.

وعاودها التفكير مرات في ذلك الضابط الجميل. وآلمها أنه رآها تستقبل الموت في غير اكتراث، وأنه نسى عهدها. ثم غلبها الحب على أمرها فقدرت له عذراً على مسلكه هذا، فهو ربما اعتقد أنها هي التي طعنته بالخنجر تلك الطعنة.

وتمزق قلبها، وودت لو عرفته بأي ثمن أنها لم تفعل ذلك. وحز في قلبها أنه يمكن أن يصدق أنها وهي التي تفتديه بالروح يمكن أن تقدم على تلك الفعلة.

ومع الزمن خف اشمئزازها من دمامة كازيمودو بعض الشيء. وفي ذات يوم وقفت تتسلى بالنظر من النافذة الصغيرة، فرأت فيبوس،

فكادت تقذف بنفسها من شاهق. ثم تذكرت الصفارة فنفخت فيها، فأقبل كازيمودو في الحال. فأشارت إليه أن يقترب من النافذة، فأطل ورأى الضابط يجتاز الساحة متجهاً إلى بيت الكونتس. فعرفه على الفور، وكيف لا وهو بطل الموقعة والسبب في تعذيبه.

وشعر كازيمودو بطعنة تصيب قلبه، ولكنه تماسك وسألها:

ــ هل آتيك به؟

فتهلل وجه الفتاة وصاحت:

ــ نعم. واسرع بربك.

فلم تتحمل أعصابه نظرتها الضارعة، وانطلق لا يلوي على شيء.

ما إن وصل كازيمودو إلى أديم الأرض حتى بصر بالضابط يدخل بيت فلور دي ليس، فلم يجسر على الدخول وراءه، وربض تحت الشرفة ينتظر خروجه. وكانت الشمس قد جنحت إلى الغروب، وأبصر من مكانه وجه أزميرالدا وهي تطل من الكوة. ثم خيم الليل وتقدم حتى أوشك أن ينتصف، وكازيمودو لم يبرح مكانه.

ولما عيل صبره، انفتح الباب وبرز منه الضابط وفتاة في مقتبل العمر، ثم رآهما الأحدب يتعانقان، ودخلت الفتاة وأغلقت الباب، فامتطى فيبوس جواده الذي كان مربوطاً إلى جوار الباب، فوثب كازيمودو وأمسك بعنانه، فصرخ الضابط غاضباً، دون أن يعرف كازيمودو لشدة العتمة، بيد أن كازيمودو لم يأبه له وقال بصوت هادىء قد الطاقة:

ــ تعال معي يا كابتن، فهناك من يريد التحدث إليك.

ــ أتركني أيها الوغد، فليس هذا وقت كلام.

ــ سيدي. إنها سيدة.

ــ مرحى! ولكن أتحسبني يا هذا مستطيعاً أن ألبي نداء كل أنثى تعجب بي؟

ــ إنها جميلة.

ـ وإن. إذهب واخبرها أنني مقدم على الزواج.

فيأس كازيمودو وصاح:
ـ إنها الغجرية، أزميرالدا.

فارتاع فيبوس وصرخ في وجهه:
ـ يا للشيطان! فلتذهب إلى الجحيم.

ثم رفع سوطه فضرب به وجه كازيمودو، وألهب جواده بمهمازيه فابتلعه الظلام.

وعاد كازيمودو إلى الكنيسة وهو يتميز غيظاً، فوجدها لا تزال حيث تركها أمام النافذة. فلما رأته مقبلا وحده سبته، فقال:
ـ سئمت الانتظار، ولا بد أنه خرج من الناحية الأخرى، أو لعله سيبيت هناك.
ـ قبحك الله يا أقبح خلقة، أغرب عن وجهي!

ونعود إلى سيدنا الأسقف. فنراه قد علم بكل ما وقع لفاتنته بطبيعة الحال وكيف أنها تقيم في كنيسته، و يجمعهما سقف واحد.

و بديهي أنه كان في عذاب مقيم. وأن المطامع والآمال عادت تراوده ليلا ونهاراً. وفي ذات يوم دخل عليه شقيقه جيهان، فقطب الأسقف في وجهه وسأله وهو لا يرفع بصره عن كتاب بين يديه:
ـ ما الذي جاء بك؟

فقال جيهان في تلعثم:
ـ حداني الشوق إلى رؤياك.
ـ أهذا كل ما هناك؟

فاستجمع الشاب الماجن أطراف براعته وريائه وقال:
ـ شقيقي العزيز المفضال، أنا أعلم الناس بمبلغ حكمتك، و بمبلغ افتقاري إلى غالي ارشاداتك، لذلك جئت أنهل من هذا المورد العذب.

ــ وبعد الديباجة؟

ــ الواقع أنني إنسان خاطىء هالك، وقد صح عزمي على التوبة، وانتويت استئناف الدراسة بكل عزم وجد. ولكنني كما تعلم كنت شاباً تالفاً.

ــ وبعد؟

ــ والشاب التالف لا يبقى على كتب ولا أوراق، والأوراق والكتب يحتاج شراؤها إلى نقود ولهذا جئت.

ــ لا نقود لك عندي.

ــ هذا شيء يؤسف له حقاً يا أخي العزيز.

ــ يؤسف له أو لا يؤسف له، قلت لك أغرب عن وجهي.

ــ يا أخي إن لم يسعد النطق فليسعد الحال.

ــ كفى. اذهب ولا تلح.

ــ يجب أن أنذرك أنني سأحترف اللصوصية، بل أكثر من هذا أنت عدو الغجر، وسأعتنق أنا دين الغجر وأطوف معهم شوارع باريس.

ــ في داهية.

فرمق جيهان شقيقه بنظرة طويلة متوعدة، ثم استدبره وانصرف.

وفي هدأة الليل، وقد أخذ الكرى بمجامع الاجفان، واستسلمت أزميرالدا لملائكة النعاس تأسو جراح يقظتها، أيقظها من نومها حس حركة في حجرتها. وكان نومها خفيفاً، ففتحت عينيها وأبصرت على ضوء الذبالة الخافتة وجها يحدق فيها، كان أهون على نفسها أن يكون وجه شيطان، فصرخت، فانقض عليها الأسقف وكم براحة يده فمها، ثم طبع شفتيه المحمومتين على كتفها العاري، فأخذت تخدش وجهه بأظافرها كي لا يقبلها، ثم جذبت شعره في قسوة بكلتا يديها، فأفلتها وهو يلهث وقال:

ــ لقد غلبتني على أمري، لا يهنأ لي نوم ولا طعام.

ثم هجم عليها يريد أن يضمها إلى صدره، فتذكرت أزميرالدا

الصفارة، ونفخت فيها نفخة دوت في صمت الليل، فصاح الأسقف:
ـ ما هذا؟

ولكنه لم يشعر إلا وقد اجتذبته قبضة جبارة فوقع على الأرض، وجثم فوق صدره مخلوق هائل، عرف فيه ربيبه كازيمودو.

وعرفه كذلك كازيمودو، فسرعان ما نهض من فوقه، ووقف مطأطئاً ذليلا كالكلب المذنب. وانقلب الموقف فأصبح الأسقف هو الذي يرغي ويزبد ويهدد.

وأومأ كلود إلى كازيمودو أن يخرج، فركع الأحدب وصاح متوسلا:
ـ مولاي. افعل ما بدا لك، ولكن لن تمر إليها إلا على جثتي.

فدفعه الأسقف في صدره، وانقلب على أعقابه حتى ابتلعه الظلام، وهو يزمجر بصوت كأنه نذير العاصفة:
ـ كلا. لن تكون لأحد إن لم تكن لي.

نقل جيهان خبر وجود أزميرالدا في الكنيسة إلى جماعة الغجر. فكان ببير جرنجوار يأتي إلى ساحة الاعتصاب في كل يوم، على أمل رؤية أزميرالدا مطلة من بعض النوافذ، ولمحه الأسقف غداة تلك الليلة التي ردته فيها أزميرالدا خائباً، فنزل إلى الساحة وفاجأ جرنجوار، بأن وضع يده على كتفه وقال له:
ـ أراك لم تنس زوجتك الغجرية؟
ـ مرحى يا سيدي الأسقف. إنني إن نسيت زوجتي، فمن أين لى أن أنسى جالي؟
ـ يسوؤني أن أبلغك خبراً محزناً عن زوجتك.
ـ رباه! هذا أيضاً؟ أهي مريضة؟
ـ لقد قرر البرلمان حرمانها من الحصانة، وبعد يوم أو يومين سيقبض عليها. فهل يهمك أمرها كثيراً؟
ـ لقد أنقذت حياتي من الموت يا سيدي. وليتني أستطيع رد الجميل:

ـ هذه مسألة صعبة. ففكر في حل، على أن يكون ذلك قبل فوات الأوان.

ـ لدي فكرة يا سيدي الأسقف، ولكنها تحتاج إلى الجرأة والعزم.

ـ وما هي؟ فاني صادق الرغبة في مساعدتك.

فمال جرنجوار على أذن الأسقف وأسر إليه بحديث طويل أعلن الأسقف اطمئنانه إليه.

وما هي إلا ساعات حتى كانت رحبة المعجزات أو دار الاعاجيب تموج بحركة لم تألفها تحت جنح الظلام، فاصطف جيش جرار من المتشردين واللصوص وقطاع الطريق وذوي العاهات، ثم انتظموا في كتائب عقد لواء كل كتيبة فيها لأمير، وزحفت كل سرية وفيلق في طريق مستقل، ولكن هذه الفيالق جميعاً التأم جمعها في ساحة الاعتصاب أمام باب كنيسة نوتردام.

وكان كازيمودو قد قام منذ قليل بجولته الليلية المعتادة، فاطمأن على سلامة الاجراس في أبراجها، ثم تفقد أبواب الكنيسة، فأدهشه أن يجد الباب الكبير مفتوحاً، فأسرع يحكم رتاجه الضخم. ثم صعد إلى سطح الكنيسة ولزم باب حجرة أزميرالدا لحراستها.

وشعر بشيء من القلق الغامض، فنزل وجعل يتفقد الأبواب مرة ثانية. فاذا به يجد ذلك الباب الكبير وقد رفعت مزاليجه، فأغلقه بيده وصعد إلى السطح وهو يعجب في دخيلة نفسه لهذه الظاهرة الغريبة.

وظاهر أن ذلك الباب المفتوح كان جزءاً من الخطة التي اشترك الأسقف في تدبيرها، وهو يرمي إلى خروج الفتاة بالقوة من الكنيسة، كي تبتعد عن أنظاره من جهة، وكي يمكن تطبيق القانون عليها من جهة أخرى.

وفي الساعة المتفق عليها التأم شمل جيش رحبة الاعاجيب تحت القيادة العامة لملك تونس كلوبان ترويفو، وعلى الجناحين بيير

جرنجوار وجيهان فرولو، واصطف الجميع في انتظار إشارة الهجوم لاختطاف أزميرالدا.

وأضيئت المشاعل، وتحسس كلوبان باب الكنيسة. فاذا به موصد. فاستولى العجب على بيير جرنجوار، بيد أن كلوبان لم يتردد في الأمر باقتحامه، فأسرع دوق بوهيميا إلى كومة من الأخشاب أمام بعض العمائر في الميدان، وأحضر كتلة ضخمة حملها عشرة رجال فانهالوا بها على الباب الضخم. ولكن الباب اهتز ولم ينفتح.

أما جيهان ففكر في حيلة. وأحضر سلماً كان من أدوات تلك العمارة فوضعه على جدار الكنيسة وهو يؤمل في الوصول إلى داخلها سالماً، حيث يفتح بيده الباب للجيش.

وفجأة وقع شيء لم يكن في الحسبان. فقد انهالت على الجيش قذائف الحجارة من فوق سطح الكنيسة، ومن مواضع متفرقة.

وفي هذا الوقت كان جيهان قد تسلق السلم، ونجح في الوصول إلى نتوء في واجهة الكنيسة، فتبعه في الصعود فريق من الرجال، ما كادوا يصلون إلى القمة حتى ثلبت السلم بهم يد جبارة، فسقطوا من حالق على الأرض فتهشمت أضلاعهم وارتفع أنينهم.

واعتقد جيهان أنه أفلت، وتأهب للوثوب داخل الفناء كي يفتح الباب، وإذا بذراعين هائلين يقبضان على خاصرته، ورأى وجه كازيمودو يحملق فيه في الظلام، فاستولى عليه الرعب، وحمله كازيمودو كأنه ريشة، وقفز به، ثم قذف به الجيش المهاجم، فسقط لا حراك به.

ولم تزد هذه الخسائر جيش الاوباش إلا حماسة واصراراً، وأخذ الباب يهتز تحت ضرباتهم اهتزازاً عنيفاً. وهم يظنون أن القائم بالدفاع عن الكنيسة جيش كامل مدرب.

وتمكن الاوباش من الحصول على جملة سلالم، نصبوها في وقت

واحد، فأسقط في يد كازيمودو وجعل يغدو و يروح كأنه وحش كاسر وهو يصرخ:

ـ ساعدني يا رب.

وهداه الله فتذكر كمية كبيرة من الرصاص كانت معدة لاصلاح السقف، فأخذ غلقاً وجعل ينقل أمام كل ميزاب كومة منها، ثم وضع حولها الحطب وأشعل النار، وسرعان ما انصهر الرصاص وتدفق من الميازيب في وقت واحد، فوق جماجم المهاجمين فارتفع صياحهم وعلت لهم ضجة كبيرة.

وفي هذه اللحظة كان خبر هذا الهجوم قد وصل إلى مسامع الملك، فأصدر أمراً إلى جنود الحرس بالتدخل فوراً لقمع الفتنة والقبض على الساحرة لشنقها. ولكن الأحدب ظن أن هذه الجنود هي النجدة التي ابتهل إلى الله في طلبها، وأسرع إلى حجرة أزميرالدا ليبشرها بالنجاة.

ولكنه لم يجد أزميرالدا في حجرتها، ولا في أي مكان في الكنيسة.

هبت أزميرالدا من نومها مذعورة على ضجة ذلك الهجوم الليلي، فأطلت من الكوة ورأت ذلك المنظر المروع، فأدركت أنها موضع هذا الهجوم، وهمت أن تنادي كازيمودو، وإذا بالأسقف وقد هجم عليها وخنق صرختها بيده، ثم حملها وانطلق بها من باب الكنيسة الخلفي.

وظل الأسقف يجري وهي فوق ذراعيه حتى وصل إلى برج رولان، فوقف يسترد أنفاسه اللاهثة. ثم أخذ يشرح لها الخطر المحدق بها و يخيرها بين الموت والحياة معه. فلما لم تستجب له خطر على ذهنه خاطر، فدق جدار البرج وصاح: «أيتها الأخت جيدول، اقبضي على عنق هذه الغجرية، فانها من القبيلة التي سرقت وحيدتك».

وأسلم يد الفتاة إلى قبضة العجوز المجنونة، وانفلت كي يدعو رجال الشرطة للقبض عليها. ولم تقاوم أزميرالدا، فقد ذهب الحزن بلبها. أما

الأخت جيدول فراحت تسبها وتتوعدها بعذاب الدنيا والآخرة. فقالت أزميرالدا: «وما الذي اقترفته؟»

ـ أتسألينني يا فاجرة؟ إذن فاعلمي أنه كانت لي ابنة وحيدة لا أرجو من الحياة سواها، فسرقتموها مني يا أولاد الأفاعي.

ـ ولكني لم أكن قد ولدت حين كانت لك طفلة أيتها العجوز. فأطلقيني لوجه الله، فاني أراهم قادمين.

ـ ردي إلي ابنتي أولا.

ـ ومن أين لي ابنتك؟ واها لي! أنت فقدت ابنتك وأنا فقدت أهلي.

ـ اسمعي أيتها الغجرية، أعيدي إلي ابنتي أطلق سراحك وأنجيك، ألا تعرفينها؟ سأريك علامة تدلك عليها. هذه هي فردة حذائها، وكانت الفردة الأخرى في رجلها.

وارتعدت فرائص أزميرالدا حين رأت ذلك الحذاء المطرز، وبيدها الطليقة فتحت القلادة الصغيرة المزينة بالزمرد الزائف حول عنقها، وأخرجت منها فردة الحذاء الأخرى. وعندئذ انقلبت العجوز من حال إلى حال، ومدت ذراعيها من بين القضبان تتحسس وجه أزميرالدا وتصيح: «بنتي! بنتي!».

أما أزميرالدا فوقعت على عنقها تبلله بدمعها. ثم جعلت العجوز تضرب القضبان بيديها كاللبؤة الهائجة. ثم التقطت من أرض الصومعة حجراً كبيراً جعلت تضرب به أحد القضيبين المتآكلين سن الصدأ حتى كسرته، ثم كسرت القضيب الآخر، واجتذبت بقوة الشياطين ابنتها فأدخلتها الزنزانة التي ليس لها باب. ثم عكفت عليها تدللها وتهدهدها، وهي تشدو بالغناء وقد ذهب الفرح المفاجىء ببقية العقل، بعد أن ذهب الحزن بالقسط الأكبر منه.

ودوت في الفضاء سنابك الخيل، فتنبهت المرأتان، واستولى عليهما الذعر، ولكن العجوز هدأت روعها وأخفتها وراء ظهرها حين وقف

مقدم الجنود أمام النافذة وسألها عن الساحرة التي قال الأسقف أنها في عهدتها، فأجابته: «لقد عضت يدي فأطلقتها».

ــ ومن أي جهة هربت؟

ــ لست أدري.

وهم الرجل أن ينصرف، لكنه رأى القضبان محطمة، ففطن إلى الخدعة وأمر رجاله بالهجوم على الصومعة، فاستأسدت المسكينة في الدفاع وكأن فيها قوة عشرين رجلا. وراحت تصرخ في الجنود:

ــ أيها اللئام. إنها ابنتي. وجدتها بعد ستة عشر عاماً.

ــ وماذا نصنع وهذه إرادة الملك؟

ثم أحضر الجنود الفؤوس وشرعوا في هدم البرج. ثم أخذوا أزميرالدا إلى مصيرها المحتوم.

لما أيقن كازيمودو أن الفتاة قد اختفت وهو مشغول بالدفاع، جعل يضرب رأسه بيديه، و يضرب الأرض بقدميه، و يجذب شعر رأسه، و يصرخ و يولول. فلما اقتحم جنود الملك الكنيسة جعل يدلهم على جميع المخابىء والأركان وهو يظن أنهم جاءوا لانقاذها، كما كان يظن أن الاو باش هم الذين جاءوا لايذائها.

ولم يعثر جنود الحرس بقيادة فيبوس على أثر للفتاة، فانصرفوا يائسين، واستمر هو في بحثه وتنقيبه، صامتاً تارة، ومولولا تارة أخرى. ثم لما أيقن أنه لا وجود لها في الكنيسة صعد إلى حجرتها التي عاشت فيها تلك الاسابيع القلائل تحت رعايته وعطفه، فجعل يقبل موضعها من الحشية، وتراب الأرض، ثم يضرب الجدران برأسه، لعله يتحطم و يتخلص من الحياة. فلما فشل في الانتحار بتلك الطريقة كي يتخلص من آلامه سقط على الأرض متداعياً وهو ينوح كالثكلى.

ثم خطر له أن والده بالتبني لا بد أن يكون هو المسئول عن اختفائها، فاستولى عليه الحزن، ولكنه لم يحقد عليه عرفاناً بجميله.

وقام بعد انتصاف الليل يطل على ساحة الاعتصاب. فرأى زحاماً شديداً، ثم لمح الأسقف واقفاً، وهو يحدق في ذلك الزحام باهتمام بالغ. فأيقن أن في الأمر سراً، ولم يلبث ضوء الفجر أن كشف له السر. ففي الميدان نصبت مشنقة. وصعد الجلاد وفوق كتفه جسم ناحل في ثوب عرفه كازيمودو. وكانت الفتاة مغشياً عليها.

وكاد عقل كازيمودو يذهب وهو يرى بعينه الجلاد يعلق أزميرالدا في حبل المشنقة ثم يتركها معلقة فيه، والناس ينظرون و يتصايحون.

وجمد الدم في عروق الأحدب، ولكنه فطن إلى حركة بدرت من الأسقف الذي لم يكن يشعر بوجوده لشدة استغراقه فيما يرى.

لقد انفجر الأسقف ضاحكاً ضحكة لا تمت إلى ضحك البشر بصلة. ولم يسمع كازيمودو صوت ضحكته، ولكنه رأى وفهم.

ودون أن يدري ما هو صانع، حمله كازيمودو بين يديه، ثم ألقى به من شاهق، فسقط على الأرض جثة مختلطة المعالم.

أما كازيمودو فألقى على جثة أزميرالدا المعلقة في المشنقة نظرة توله، ثم زفر زفرة كاد ينشق لها صدره، واختفى عن الأنظار.

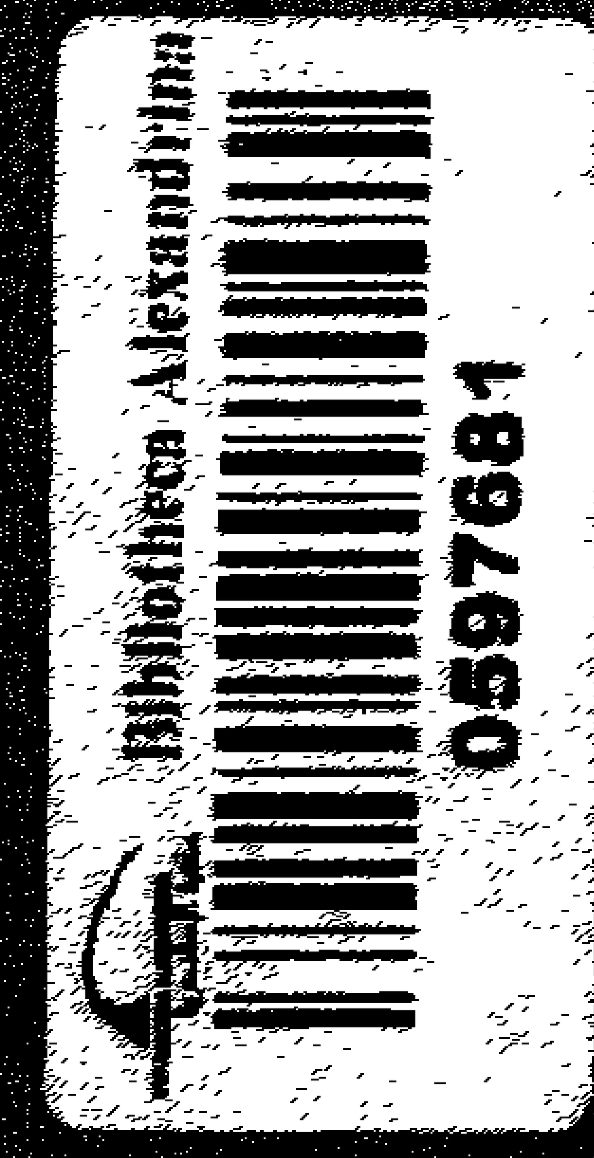
وبعد عام عثر العمال في مقابر الصدقة بضاحية مون فاكون على جثة شاذة التكوين لرجل ضخم الرأس مقوس الظهر والصدر ملتوي الساقين، وقد احتضن جثة امرأة في رداء أبيض.

وكذلك كانت مشيئة القدر أن يجمع الموت بين كازيمودو وأزميرالدا الحسناء في أكفان الفناء بعيداً عن حياة كلها كذب وأطماع وغدر وبلاء.

روائع القصص العالمية

صدر منها

- الأرض الطيبة
- سوف تشرق الشمس
- رجال ونساء وحب
- عدالة السماء
- غادة طيبة
- ذهب مع الريح ٢/١
- جزيرة الأحلام
- عذراء وثلاثة رجال
- الشيخ و البحر
- جريمة في الريفيرا
- السجين الهارب
- وادي الرعب
- جريمة على الشاطئ
- آنا كارنينا
- الشاهدة الوحيدة
- الشقراء البريئة
- قتيل في المترو
- ساعة الصفر
- الجريمة الكاملة
- غادة الكاميليا
- أحدب نوتردام
- الفرسان الثلاثة ٢/١
- البؤساء
- إعلان عن جريمة
- الجوهرة الخضراء
- الخيط الدموي
- الكونت دي مونت كريستو
- دافيد كوبرفيلد
- آلام فيرتر
- الكأس الأخيرة
- ايفانهو (الفارس الأسود)
- الرجل الغامض
- جزيرة الكنز
- الجريمة المزدوجة
- جزيرة [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]



بيروت ـ لبنان
تلفاكس : 00961 1 791668
ص.ب : 11/6918 ـ الرمز البريدي 11072230
سوريا ـ حلب
هاتف : 2211620 - 2211621 - 2211622
فاكس : 00963 21 2211623
www.afach.aleppodir.com
E-mail : afach1@scs-net.org



ISBN 9953-61-010-X

Designed by R. Sedik